

تجليد صالح الدقر  
تلفون ٢٢٩٧٧

808.N32bA

c.2

نوفل و سيد .

البلاغة العربية في دور نشأتها ...

808

N32bA

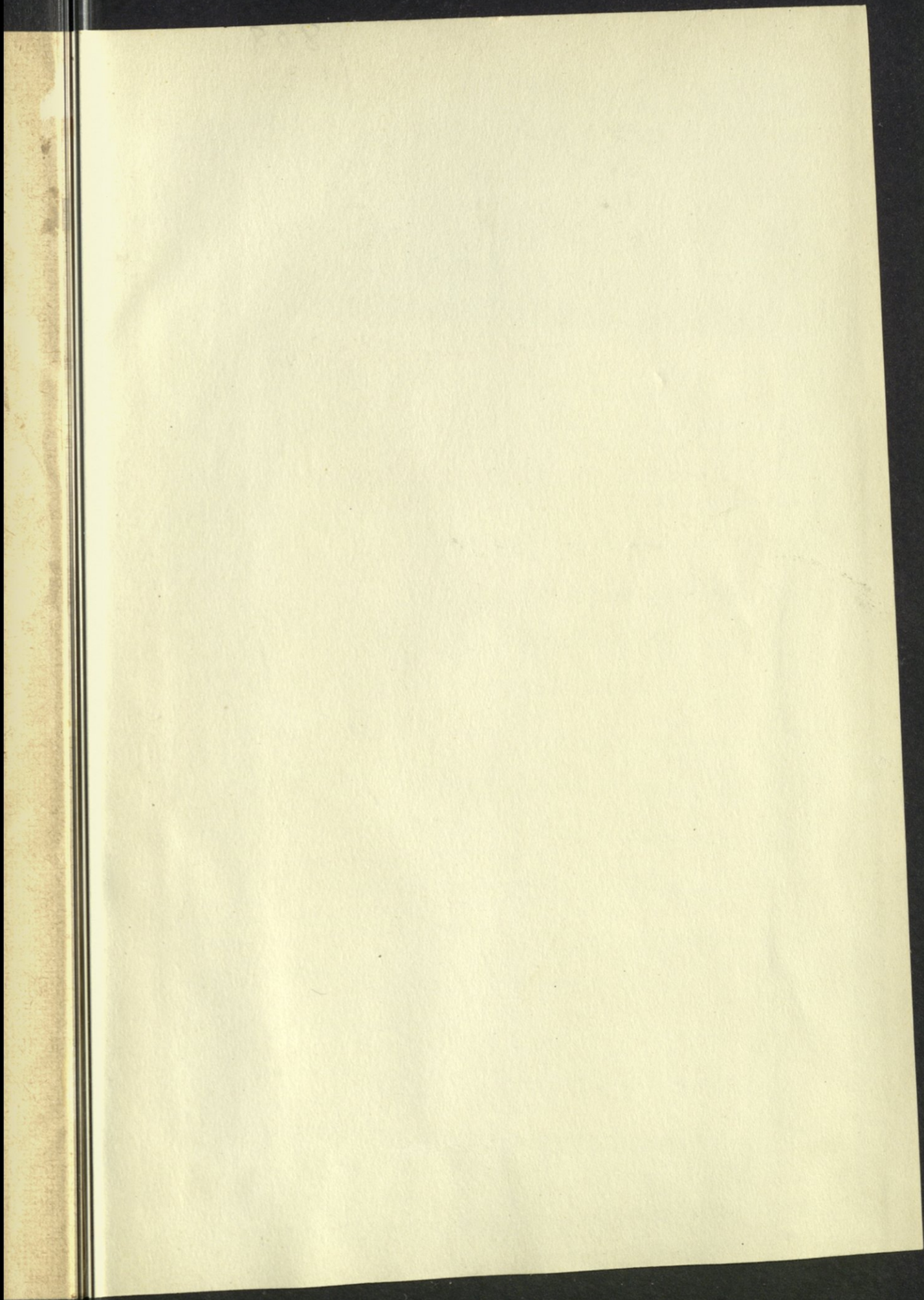
c.2

12 Jun 65

~~JUN 66~~

~~JAFET LIB.~~  
~~20 JUL 1976~~

JAFET LIB.  
\* 30 JUN 2004 \*  
Circulation Dept. I



808  
N32.6A  
C.2

# البلاغية العربية

في دور نشأتها

بحث تحليلي في علم البلاغة ، وموضوعاته  
الأولى ، والصوامل التي أنشأتها ، ومقدمتها  
لنخبة الفن البياني . ٤

بقلم

الدكتور سيد نوفل

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

١٩٤٨

LIBRARY

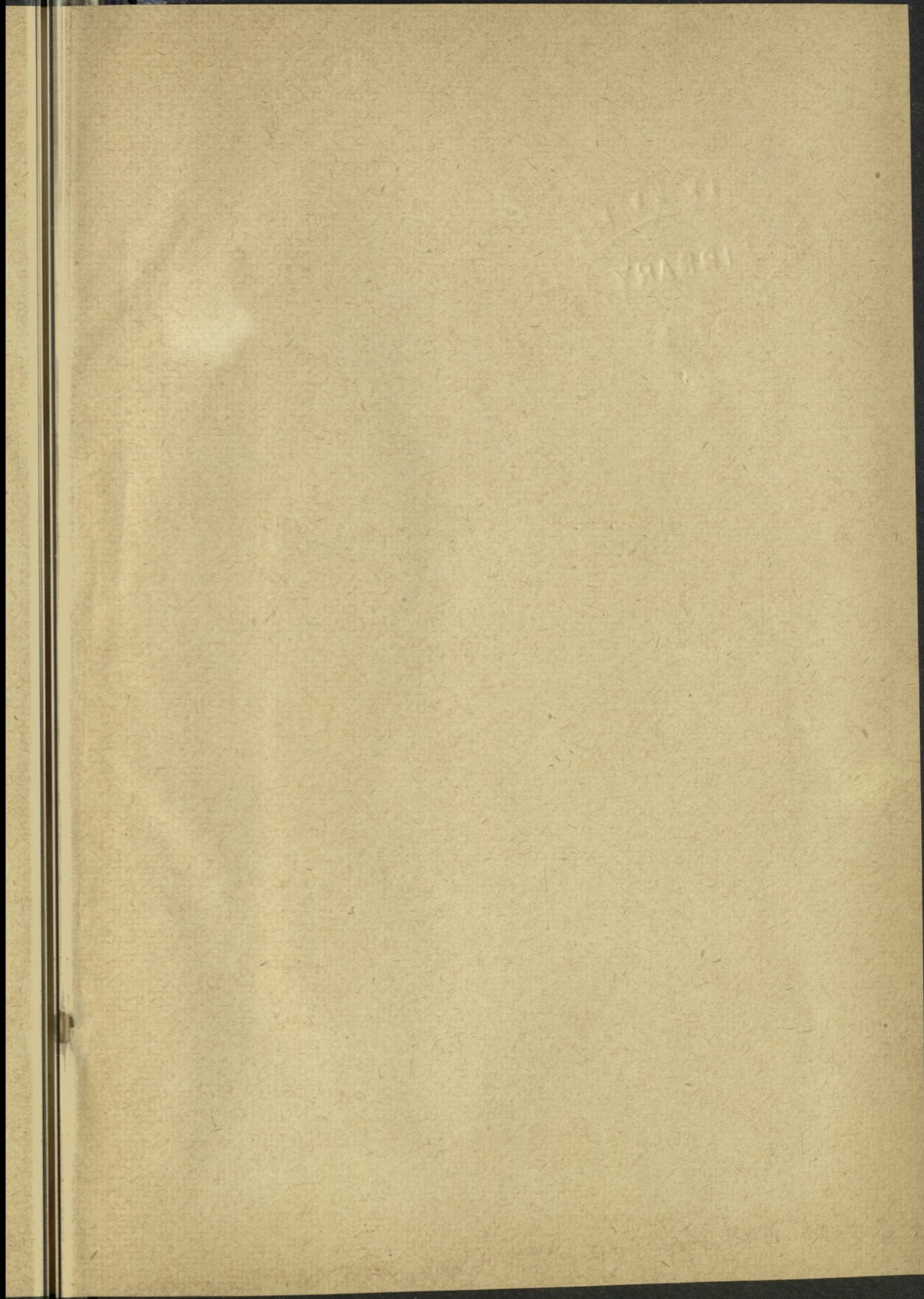
LIBRARY

# الاهداء

إلى أصدقائه العلم ومن يجرون في البحث  
والدرسي متاعا رفيعا ينزى بكل متاع

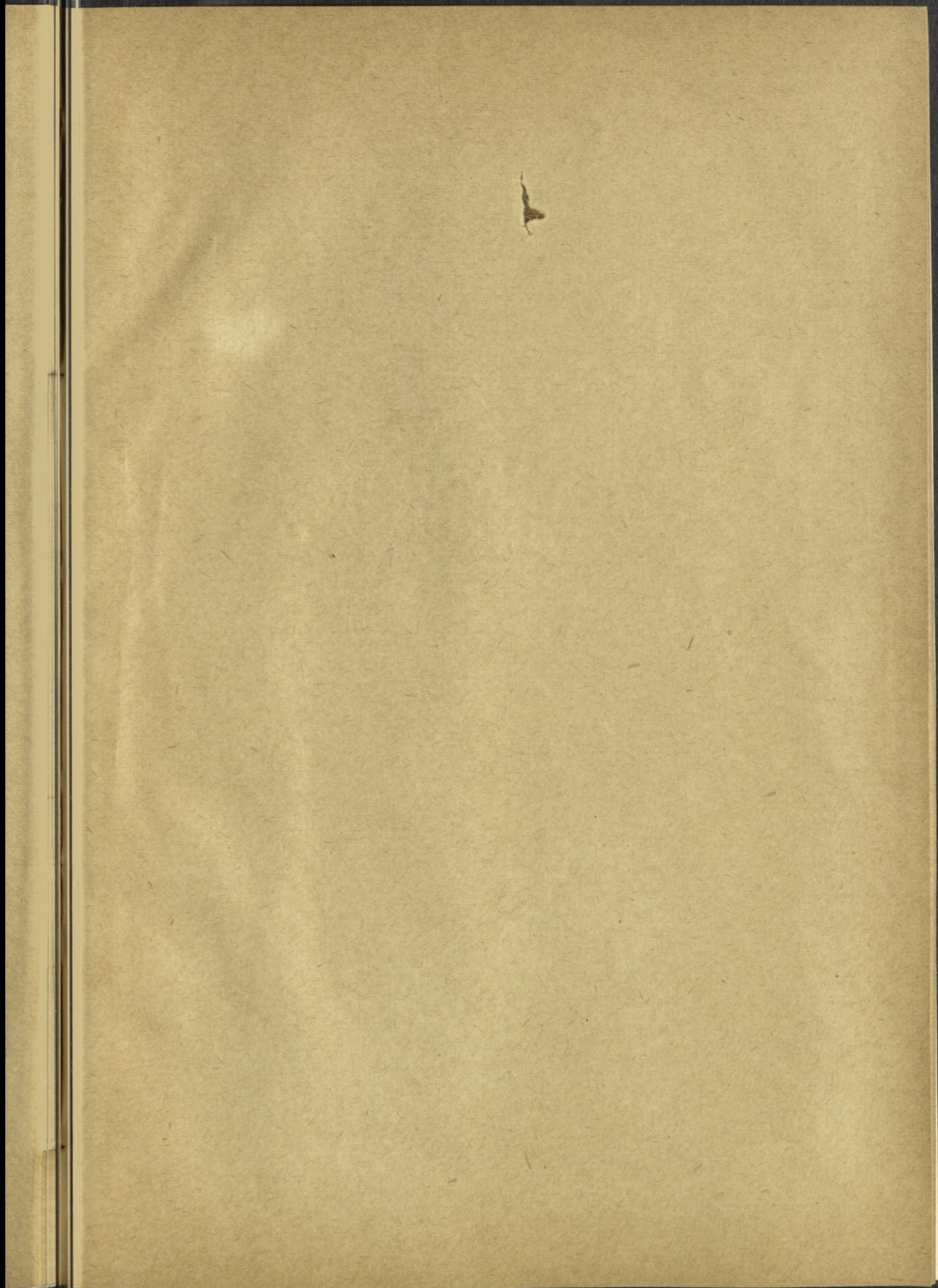
سعيد نزل

LIBRARY





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## فهرست موضوعات الكتاب

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٦٧	واصل بن عطاء	ج	الإهداء
٦٨	عبد الحميد الكاتب	ط	مقدمة
٧٠	ابن المقفع	١	الباب الأول: نشأة البلاغة :
٧٢	عمرو بن عبيد	٢	١ - في الجاهلية
٧٤	جعفر بن يحيى	٨	٢ - في عهد النبوة
٧٥	شيب بن شيبه	١٣	٣ - المجالس الأدبية
٧٦	سهل بن هرون	١٧	٤ - الكتاب
٧٨	أبو عبيدة	٢٣	٥ - المعلمون
٨٦	بشر بن المعتمر	٢٥	٦ - المتكلمون
٨٩	كلثوم العتابي	٣٣	٧ - الفقهاء
٩٣	الباب الثالث: البلاغة عند الجاحظ:	٣٤	٨ - المفسرون
٩٥	تعريفها ، مسائلها	٣٦	٩ - اللغويون
٩٥	معنى البلاغة	٤٣	١٠ - الشعراء
١٠٥	تعريفها	٤٤	١١ - العنصر الأجنبي
١١١	مسائلها	٥٣	الباب الثاني: البلاغة قبل الجاحظ:
١٢٢	معناه ، تعريفه ، مسائله	٥٤	العصر الجاهلي
١٢٢	١ - معنى البيان	٥٦	العصر الإسلامي
		٦٣	الخلفاء الراشدون
		٦٥	معاوية

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٦٠	معناه ، مسائله	١٣١	ب - تعريف البيان
١٦٠	١ - معنى البديع	١٣٤ :	ج - مسائل «
١٦٢	ب - مسائله :	١٣٦	١ - التشبيهية
١٦٢	١ - السجع	١٤١	٢ - المجاز
١٦٥	٢ - الاقتباس	١٤٦	٣ - الاستعارة
١٦٥	٣ - أسلوب الحكيم	١٤٩	٤ - المثل
١٦٧	٤ - المذهب الكلامي	١٥١	٥ - الكناية
١٦٩	خاتمة	١٥٤	الفصل الثالث : الإيجاز
١٧٠	الجاحظ في تاريخ البلاغة		الفصل الرابع : البديع ،

## مقدمة

في سنة ١٩٣٣ ، حين كنت طالباً في المرحلة النهائية بكلية الآداب ،  
كنا نوجه نحو قراءة الآثار العربية القديمة ، وبيان محاسنها ومساوئها ،  
ونقدتها نقداً علمياً حراً ؛ لا يحده سوى نزاهة البحث ، ودقة الرأي ،  
واستقصاء الدرس .

و درست حينئذ : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للبرد ،  
وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكاتب للصولي ، وكتاب  
الكاتب لابن دروستويه ، كما درست سواها من الكتب ، أتلمس نشأة  
البحث البلاغي في العربية .

وكان أستاذ البلاغة العربية يعلن ثورة جامعة على دراسة البلاغة ،  
وينقد الأساليب التي انتهت إليها ، ويدلنا على أسباب الجمود الفكري  
أولاً حالة الذوقية ؛ وينشد أساليب طريفة تعتمد على الماضي ، وتسايير  
الحاضر ، وتستطيع أن تحيا في المستقبل .

وخرجت من الجامعة بعد أن حصلت على الليسانس ، فاشتغلت  
بالصحافة عامين : أكتب الفصول الطوال في الأدب ، واللمحات  
القصيرة في الاجتماع والسياسة . لسكن الهوى ، مع ذلك كله ، ظل يجذبني  
نحو الجامعة . فلم ينقطع حبل اتصالي بالدراسة العلمية .

وتركت الصحافة وعدت إلى الجامعة . فوجدت من فسحة الوقت  
ما جعلني أفكر في الحصول على درجة الماجستير في الآداب ، واخترت

هذا الموضوع الذي بدأت دراسته أيام الطلب : « نشأة البلاغة العربية »  
وتركت الجامعة واشتغلت في مكتب وزير المعارف عامي ١٩٣٨ ،  
و ١٩٣٩ . ثم تركت عملي بمكتب الوزير إلى إدارة الثقافة العامة ، وحينئذ  
أتممت ما بدأته منذ أعوام ، وما كان عملي المتصل يحول دون السير  
فيه بخطوات واسعة . وتقدمت إلى جامعة فؤاد الأول بهذه الرسالة ،  
فحلت درجة الماجستير في الآداب في مطلع عام ١٩٤٠ .

وقد كنت أرغب في استكمال البحث ، والانتهاء من هذه المقدمة  
الدراسية إلى غاية ، ولهذا أجلت نشره . لكنني عدت هذه الأيام ،  
فرايت أن أنشره في الناس كما هو .

\*\*\*

وقد قصدت في هذا البحث إلى كتابة تاريخ البلاغة العربية في دور  
نشأتها ، ووضع المقدمة لمنهاج صحيح ؛ يقوم على درس الاصطلاحات  
وتطورها ، وكيف نشأت بسيطة ساذجة ، ثم تخطت أدواراً انتهت  
بها إلى التركيب والتعقيد .

ولما كان الجاحظ هو مؤسس علم البلاغة العربية وجامع مسائلها ،  
لم يكن مناص من اتخاذه الأساس الأول لهذه الدراسة .

ولما كان أكثر معاصريه استطراداً ، وأبعدهم عن مراعاة النظام  
في التأليف - فقد كان من العسير علي من يبحث موضوعاً عنده أن  
يركن إلى كتاب معين ، وكان لا بد لدارس بلاغته من قراءة جميع كتبه  
وجمع المتفرق فيها ، والمقابلة بينه وتفسيره ؛ إذ كثيراً ما يبدو متناقضاً .

وهذا ما صنعت . قرأت ما بأيدينا من كتبه ، وجمعت النصوص التي ورد فيها ذكر البلاغة أو أى اصطلاح من اصطلاحات علومها ، أو لفظ من ألفاظها ، أو معنى من معانيها ، وحاولت أن أصور هذه الاصطلاحات ، كما تدل عليها تلك النصوص المبعثرة .

ورأيت من اللازم ، لفهم البلاغة عند الجاحظ ولتحقيق ما قصدت إليه ، الحديث عن البلاغة قبله ، وكتابة باب عن نشأة البلاغة ، وخاتمة عن الجاحظ في تاريخ البلاغة . واقتضى هذا قراءة المتقدمين الذين سبقوه ، وكما اقتضى قراءة معاصريه وبعض المتأخرين ممن عرضوا له ولعصره وقد تجنبت تحميل النصوص ما لا تطيق من المعاني والدلالات ، والاسراف في الاستنتاج . بل كنت أؤثر أن أدع النص - مادام واضحاً - يبين عن نفسه ، على أن أتكلف عناء قول لا غناء فيه ولا جديد

وإني ، وإن أنفقت عدة سنين في هذا البحث ، لازلت أرى أنه محاولة لا بد من أن تعقبها محاولات ، وبداية أرجو أن تنتهي إلى غاية

١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٨

سير نوفل

الكتاب



# الباب الأول

نشأة البلاغة

أتى في شعر الجاهليين كثير من ألوان التشبيه والمجاز. وقد يكون مصدر هذا الطبيعة الشعرية الخيالية التي تقابل بين الأشياء وتشابهه، ثم تبين عنها في صورة جميلة بارعة. لكن من يلتمس بذور البحث البلاغي يجد لها بعض المظاهر في مناظرات الشعراء وأحاديثهم، وفيما كان يتخلل أسواق العرب وأنديتهم من حوار أدبي

فامرؤ القيس يناظر علقمة الفحل، وتفضل زوجة امرئ القيس علقمة لحسن تصويره في قوله:

فأدر كمن ثانياً من عنانه      بمرُّ كغيثٍ راح متحلَّبِ

وترى أن هذا خير من قول زوجها:

فللسوط أهوبٌ وللساق درَّةٌ      وللزجر منه وقعُ أهوجٍ منعبِ

وطرفة ينكر التجوز في قول المسيَّب بن علس:

وقد أتلافى لهم عند احتضاره      بناج عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمِ

ويقول: استنوق الجمل؛ لأن الصيعرية من سمات النوق، فاستعمالها

مع الجمال إحالة غير مقبولة.

وروى أن النابغة كانت تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ، فيأتيه

الشعراء وينشدون أمامه الشعر ليحكم بينهم. ويظهر أنهم كانوا يتفاخرون

بما في شعرهم من تشبيهه ومجاز. فالخنساء تنشده قولها :

وإن صخرًا لتأتتم الهداة به كأنه عَلمٌ في رأسه نار

ويعجب النابغة به ، فيغيظ هذا الإعجاب حسانا ، فيثور ويتحدى النابغة وأباه والخنساء أن يأتوا بمثل قوله :

لنا الجفّنات الغر يلمعن في الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

لكن النابغة لا يعجبه هذا التصوير ، فيقول له : أقلت جفنانك وأسيافك — يعني أن الجفّنات لأدنى العدد والكثير جفان ، وكذلك أسياف لأدنى العدد والكثير سيوف ؛ وقلت : « يلمعن بالضحى » ولو قلت « يبرقن بالدجى » لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف في الليل أكثر ، وقلت « يقطرون من نجدة دما » فدلت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . ثم يتيه النابغة عليه بحسن بيانه في قوله :

خطاطيف حُجْنٍ في جبالٍ متينةٍ تُمَدُّ بها أيدي إليك نوازع

ويعيننا في هذه الرواية أن الخلاف قام على مسألة تتصل بالتشبيه

والمجاز

ويقول ابن رشيق في أول حديثه عن المبالغة : ( والناس فيها مختلفون منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى في الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان ، وهو القائل : أشعر الناس من استعجيد

كذبه وضحك من رديئه . هكذا أعرفه . ورأيت بخط جماعة منهم  
عبدالكريم والباغاني : من استجيد جيده ومطابقه وضحك من رديئه . .  
وروى قوم من حديث النابغة ، ومطالبتة حسان بن ثابت بالمبالغة ، ونسبته  
إياه إلى التقصير في قوله :

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ما هو مشهور عندهم مشهور في كتبهم<sup>(١)</sup>

وقد يقال إن هذه الروايات ضعيفة — على ما قرر ابن رشيق من شهرة  
حديث النابغة — لكنها تلائم طبيعة الحياة الفنية ، فيمكن الاطمئنان  
إلى وقوعها .

\*\*\*

وهناك شيء آخر في الجاهلية يتصل بهذا الموضوع . ذلك هو تجويد  
الشعر وتنقيحه ، وما قد يدل عليه من المعرفة بمقاييس بلاغية يطبقها الشاعر  
على قوله ويخضعه لها . فقد عرف زهير بن أبي سلمى بتهديب الشعر  
وتسميته قصائده الكبار بالحوليات . يؤلف كلامها في شهر ، ثم يتوفر  
عليها عاماً يزيد فيها وينقص ويضع لفظاً موضع آخر . وقد ذكره الجاحظ

---

(١) العمدة ، ج ٢ ص ٤٣

في معرض القول عن يتحرون المطابقة بين الكلام ومقتضاه ، وأورد له  
هذين البيتين في عيب الخطل وهو إلقاء القول على عواهنه :

وذى خَطَلٍ في القول يحسب أنه مصيبٌ فما يُلمِمُ به فهو قائله  
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتله

وسار على قاعدته جماعة من بعده ؛ كالحطيئة الذي يقول : خير الشعر  
الحولى المنقح ؛ والبُعَيْثُ الشاعر الخطيب القائل : « إني والله ما أرسل  
الكلام قضييا خشيباً ، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالباث  
المحكك » .

ويظهر أن الحطيئة قد أسرف في التنقيح . ولهذا عابه الأصمعي بقوله :  
« الحطيئة عبد لشعره » ؛ فعابه حين وجد شعره كله متخيراً منتخبا مستويا  
لمكان الصنعة والتكلف فيه <sup>(١)</sup> . وقد تحدث الجاحظ عن المجودين  
الجاهليين ، فذكر أنهم كانوا يصنعون ذلك اتهاماً للعقل ، وتتبعاً على  
النفس ، ووضعاً للعقل حاكماً في الرأى وللرأى عياراً على الشعر ، وإشفاقاً  
على الأدب <sup>(٢)</sup> .

وتحدث صاحب الصناعتين عن النابغة ، وكيف كان شعره ضعيفاً  
متكلفاً ، ثم برىء بفضل إفادته من يثرب وعلمها ، ونقل عنه قوله :

(١) البيان ، ج ١ ص ١٤٩ — ١٠٥

(٢) البيان ، ج ٢ ص ٢١

« دخلت في يثرب فوجدت في شعري ضعفا ، فخرجت منها وأنا أشعر  
العرب <sup>(١)</sup> » .

ولعل قول عنتره :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدِّمٍ أم هل عرفت الدارَ بعدتوَّهْمٍ  
وقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا  
لعلهما يدلان على أن العرب قد عرفوا الفن البياني القائم على وضع  
المعنى الواحد في طرق مختلفة للدلالة عليه ، وأنهم قد قصدوا إلى التنفن في  
الصياغة اللفظية .

ويتصل بهذا ما عرف عن الجاهلية من كثرة الخطباء ، فقد عد  
الجاحظ كثيراً من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء ، وأصحاب الحكمة  
والدهاء ، ومن كانوا يخطبون على العرب عامة <sup>(٢)</sup> .

وروى عن خطباء الجاهلية وأبينائها شدة اعتزازهم بالبيان ، وتفضيله  
على كل ما عداه من مقومات الإنسان . وفي هذا قال ابن ضمرة : « إنما  
المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ، وإن قال قال ببيان » <sup>(٣)</sup>  
وقد استدلل الجاحظ على أن الجاهليين عرفوا عيوب البلاغة والخطابة

(١) الصناعتين ، ص ٤٨٤

(٢) البيان ، ج ١ ص ٢٢٦ و ٢٣٣

(٣) البيان ، ج ١ ص ١٢٨

استدلالات لغوية فقال : « وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج ، والخفيف والثقيل . وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمارحوا وتعابوا . فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، ولا بينهم في ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العيسى والبكى ، والحصر والمفحم ، والخطل والمسهب ، والمتشقق والمتفهيق ، والمهماز والثرثار ، والمكثار والهماز ؟ ! ولم ذكروا الهجر والهدر ، والهديان والتخليط . وقالوا رجل تلقاعة وتلقاعة وفلان يتلحح في خطبه ، وقالوا : يخطيء في جوابه ، ويحيل في كلامه ، ويناقض في خبره . ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض ، لما سمي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء » (١) .

وفي هذا آية على معرفتهم بالإيجاز والتعقيد ، والمطابقة بين الكلام وموضوعه .

وأنى الإسلام فكان عاملاً قويا في تطور اللغة ، واتخاذ المجاز وسيلة  
من وسائل هذا التطور . ذلك بأنه وسع الفكر العربي ومد في آفاقه .  
والفكر هو الرابطة بين الألفاظ والمعاني ، واتساعه هو الوسيلة إلى التوسع  
اللغوي وإدخال الجديد من الألفاظ وابتداع الطريف من الأساليب .  
لهذا بدلت ألفاظ كأسماء الأيام والشهور ، وتجاوز في استعمال أخرى بنقلها  
من معان إلى غيرها مناسبة لها كالمؤمن والمسلم والكافر والمنافق ؛ فالعرب  
إنما عرفت المؤمن من مجرد الإيمان والتصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط  
وأوصافا بها يسمى المؤمن بالإطلاق مؤمنا . والمسلم إنما عرفت منه إسلام  
الشيء ، ثم جاء الشرع فنقل معناه . أما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم  
أبطنوا غير ما أظهروا ، وكان الأصل من نفاقاء اليربوع . ولم يعرفوا في  
الفسق إلا قولهم فسقت الرطبة إذا خرجت ، وجاء الشرع ففسر الفسق  
بالإفحاش في الخروج عن طاعة الله (١) .

ولم يكن في الجاهلية قولهم ضرورة لمن لم يحج ، ومخضر ما لمن أدرك  
الجاهلية والإسلام ، وتسميتهم كتاب الله قرآنا ، والمسح بالتراب تيمما (٢)

(١) المزهر ، ج ١ ص ١٠٨ و ١٤١

(٢) الحيوان ، ج ٥ ص ٨٦



وكان للرسول طريقة في البلاغة كما سيأتي ، وعرف في أحاديثه كثير من الأمثال السائرة والعبارات المبتكرة والمجازات البليغة ، بل لقد اتخذ الإقناع البلاغي سبيلا لنشر الدعوة ، وأذعنت بعض قبائل العرب له . وآية هذا قصة وفد تميم ، فقد قدموا على الرسول بخطيب وشاعر تكلموا بما عندهما ، ثم أجابهما خطيب من لدن النبي وشاعر ، فلما فاق هذان الأولين أعلن الوفد إسلامه ، وقالوا إن هذا الرجل لمؤتّى له ، وإن خطيبه أبلغ من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا . ولعل هذا كان مدعاة إلى أن يفكر المتناظرون في طريقة المقابلة بين الأساليب ، والنظر في ألوان البيان ومميزات الحسن والقبح في الأداء .

وشجع الشعراء والخطباء فقرب حسانا ، وأهداه جارية وضيفة ، وخلع عليه برده . وقال له لما هيج الغطاريف على بني عبد مناف : « والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام » . وقال للنابغة الجعدى : « لا يفضض الله فاك ! » . وقال لكعب بن مالك : « ما نسي الله لك مقالك » . وقال لهيدان بن شيخ : « رب خطيب من عبس ! » . كما روى عنه قوله : « إن امرأ القيس بيده لواء الشعر <sup>(١)</sup> »

وكان القرآن معجزة الرسول حجة بلاغية ، تحدى العرب بل الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولعل الموازنة بين أسلوبه

وأسلوب غيره قد استدعت التنبيه إلى المميزات اللفظية والمعنوية ، والتأمل  
في ظرائق البيان .

وقد أكثر القرآن من ضرب المثل وألوان التشبيه والمجاز والكنائية  
والبديع ، حتى كاد المتقدمون والمتأخرون يجدون لكل نوع بلاغي يهتدون  
إليه مثالا فيه .

وكان تفهمه مدعاة إلى ظهور البحث البلاغي ، فألفت في العصور  
الأولى كتب كثيرة في معاني القرآن ومجازه ونظمه وإعجازه . فواصل  
ابن عطاء والكسائي والأخفش والرؤاسي ويونس بن حبيب والمبرد ووقطرب  
النحوي والفراء وأبو عبيدة وابن الأنباري والزجاج وخلف - كل هؤلاء  
ألفوا في معاني القرآن <sup>(١)</sup> . وأبو عبيدة ألف في مجاز القرآن ، وللجاحظ  
كتاب نظم القرآن ، وكتاب المسائل في القرآن ، ولبشر بن المعتمر كتاب  
في متشابه القرآن ، ولمحمد بن يزيد الواسطي كتاب إعجاز القرآن في نظمها  
وتأليفه ، ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن ، ولابن الراوندي كتاب  
في الطعن على نظم القرآن <sup>(٢)</sup> .

وسياتي ذكر كتابي أبي عبيدة ، وكيف أنه ألف كتاب المجاز من  
أجل مسألة بلاغية في القرآن ، وهي تشبيه المعلوم بالمجهول في قوله تعالى :

---

(١) الفهرست ، ص ١ و ص ٥١

(٢) الفهرست ، ص ٥ و ص ٥٧

(طلعها كأنه رؤوس الشياطين) . وكانت آيات القرآن موضوع درس الجاحظ في كتابه عن الإيجاز والاستعارة الموصوف بقوله : « ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن ، لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات . »

وكان المجاز في القرآن مدعاة للجدل الطويل بين المثبتين والنافين ، حتى ألف مؤرخ السدوسي كتاب الرد على من نفي المجاز من القرآن (١) . وقد عرض الجاحظ لهذا الجدل في مواضع عدة من كتبه ، كالذي ذكره من من زعم ابن حائك ، وناس من جهال الصوفية ممن ينكرون المجاز في القرآن ويفسرون بظاهر اللفظ - أن النحل أنبياء ، لقوله عز وجل : (وأوحى ربك إلى النحل) ، وأن الحواريين أنبياء لقوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين) . ثم يسخر منهم فيقول : « بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على المخرج العام : (وأوحى ربك إلى النحل) ولم يخص الملوك والأمهات واليعاسب ، بل أطلق القول إطلاقاً . وعزا الجاحظ هذا إلى عدم العلم « بوجوه اللغة وفقه بعضها من بعض » . وعرض لقوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب) فقال : « فالعسل ليس بشراب ، وإنما يحول بالماء شراباً أو بلماً نبيناً » ، ثم قال : « وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه قال وبأسبابه اتسعت » .

وهكذا نرى القرآن قد أثار البحث في المجاز العربي وفهم أسرارهِ ،  
وأنهم كانوا يرونه مفخرة للعرب لا يشاركون فيها أحد سواهم<sup>(١)</sup> .  
وظلت البلاغة متصلة بالقرآن على هذا النحو ، حتى إذا كان القرن  
الرابع رأينا أبا هلال العسكري يقرر أن علم البلاغة هو الوسيلة لمعرفة إعجاز  
القرآن ، ويقول : « ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ..  
لم يقع علمه بإعجاز القرآن ، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة  
التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ... »<sup>(٢)</sup>

---

(١) الحيوان ، ج ٥ ص ١٢٨ - ١٢٩

(٢) الصناعتين ، ط مصر الثانية ، ص ٢

وكان في الإسلام مجالس أدبية تشبه المجالس الجاهلية ، كما استحدثت  
منها أنواع تلائم الحياة المتحضرة الجديدة .  
ومن المجالس الطريفة مجالس النساء ، كمجالس عائشة بنت طلحة ،  
ومجالس سكينه بنت الحسين . فيروى أن عائشة كانت تفد على هشام ، فيأتي  
مشايخ بني أمية إلى داره ويسمرون عنده ، فلا يتذاكرون شيئاً من أخبار  
العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، ولا يطلع نجم ولا يغور  
إلا سمته .

وكانت سكينه برزة تجالس جلة قريش ، ويجتمع إليها الشعراء  
والمغنون . وقد عرفت بذوقها الفني والأدبي ونقد الشعر والغناء ، وكان  
رواة الشعر يتحاكمون إليها ، وكانت تجيز الشعراء على ما تراه حسناً من قولهم  
وكيفما كان الأمر فهذه المجالس ، كما تصورها الروايات ، كان يدور فيها  
شيء من النقد اللفظي والمعنوي للشعر . والنقد وثيق الصلة بالبلاغة .

وكانت مجالس الخلفاء والولاة كعبة ، يهجم إليها الشعراء والعلماء  
فيعرضون أشعارهم ، ويتناظرون في آرائهم ومعارفهم . وكانت هذه المجالس  
موضوعاً لإثارة كثير من المسائل الأدبية والفنية ، وللنظر في ألوان الأدب  
وما فيها من جمال التصوير .

ومن مواطن الأدب مربد البصرة ومسجد الكوفة . فكان جرير

والفرزدق يذهبان إلى المربد للتهاجي . وكان للراعي والفرزدق وأتباعهما حلقة بأعلى المربد يجلسون فيها ، ويعرضون على الناس إنتاجهم الغزير . وكانت مساجد الكوفة والبصرة ميدانا لنشاط المحدثين واللغويين والنحاة والنقاد والمتكلمين والقصاص ؛ يتذاكرون فيها ويتجادلون ، ويدلي كل بما عنده لأصحابه ، فيقولون كلامه بالنقد والتجريح . ولهذا كان الخطباء والمحدثون يتحرون سلامة التعبير ، وحسن الأداء ، والبعد عن عيوب البيان .

ومما روى من هذه المناظرات ما كان بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في مجلس الحسن البصري ، من مناظرة حول مرتكب الكبيرة : أ كافر هو ، أم فاسق . وقد استطاع واصل أن يقنع عمراً ، ويجعله يأخذ برأيه في أنه منزلة بين المنزلتين : الكفر والفسق . وقد تحدث الجاحظ عن واصل ، وبلاغته وفصاحته وكال بيانه ، حديثاً يشرح كيف كان هؤلاء المتناظرون يلتمسون الكمال في البيان ، ويتحرون الدقة في الأداء <sup>(١)</sup> ، كما تحدث عن بلاغة ثمامة ابن أشرس الخطيب ، فقال : « وما علمت أنه كان في زمانه قرؤى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإيفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه . وكان لفظه في وزن إشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٣٠

بعض الكتاب : معانى ثمامة الظاهرة ، فى ألفاظه الواضحة ، فى خارج كلامه» (١) كما وصف الخزيمى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :  
له كلمٌ فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف  
والحق إن العناية بالخطابة قد أتى عليها وقت بلغت فيه مبلغاً لا يكاد يتصور ، حتى عرف من الخطباء جماعه مبالغون فى الإكثار ، كربيعة الرأى ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وعلى بن هشام وغيرهم كثير . وقد عقد لهم الجاحظ فصلاً طويلاً بعنوان : « باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء ، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل » (٢)

وقد دفع التماس البيان الحسن والتجويد الخطابى إلى النظر فيما يثقل اللسان من تنافر الحروف والكلمات ، وفيما يعوق سرعة الإفهام من الإغراب ، وفى اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما . وإن ما أورده الجاحظ عن اللكنة وما إليها من عيوب اللسان ، وعن الخطباء الموصوفين بها ، وعن المغربين والمتكلمين - لاوضح برهان على مبلغ عناية القوم بالتجويد البيانى ، وكيف أدت هذه العناية إلى الالتفات نحو المسائل البلاغية .

ويكفى أن ينظر الإنسان نظرة عامة فى كتاب البيان والتبيين ، ليرى أنه ثمرة العناية بالخطابة ، وأن موضوعها هو أصل الكتاب وقوامه . يبدوه بالحديث عن الخطباء البارعين أمثال واصل بن عطاء ، ويتحدث حديثاً

---

(١) البيان ، ج ١ ص ١٠٥

(٢) البيان ، ج ١ ص ٨٢

طويلا عن مخارج الحروف والتنافر وسمات الخطيب وهيئته ، ويورد النقاش  
بين صاحب البلاغة والخطابة وبين من يؤثر الصمت ، ويحتج للخطابة  
وجوازها ، ويذكر طبقات الخطباء في الجاهلية والإسلام ، ثم يدافع عن  
خطباء العرب ، ويمهد لرد ما أخذ الشيوعية عليهم بإيراد نماذج من خطب  
النبي والخلفاء الراشدين وملوك بني أمية وبني العباس وولاتهم ، ثم يفصل  
القول في تفنيد مزاعم الشيوعيين وغلاة الأعاجم . أما ما يتصل بهذا  
من مسائل أخرى فهو استطراد ، على مذهب الجاحظ القائل بأنه لا بد لمن  
استكده الكد من الاسترواح إلى بعض الهزل ، وبأن الفكاهات  
والمقطوعات الشعرية لازمة حتى في كتاب الحيوان .



ومما كان له أثر في نشأة البلاغة وتاريخها ظهور طبقات الكتاب ،  
والمعلمين ، والمتكلمين ، والفقهاء ، واللغويين ، والرواة .

\* \* \*

وكان اتخاذ الكتاب أمراً دعت إليه حاجة الدعوة الإسلامية ،  
فأخذ الرسول أكثر من عشرة كتاب يدونون الوحي ، ويكتبون الكتب  
إلى الملوك والولاة بالدعوة إلى الإسلام .

ولما تولى أبو بكر ، انتقضت عليه جزيرة العرب بين مرتد ومانع  
للزكاة . فواجه حروبا كثيرة ، عقد فيها أول ولايته أحد عشر لواء ، على كل  
منها قائد يسير إلى ناحية معينة ، ولا يسير إلى غيرها بعد الفراغ منها إلا  
بأمر من أبي بكر . وتبعت هذه الألوية ألوية أخرى . ولهذا كثرت كتب  
أبي بكر إلى هؤلاء القواد ، تجيب عن أسئلتهم ، وتوجههم في حروبهم  
وسيرتهم . واتخذ عمر وعثمان وعلي كتابا ، ثم سار على هذا النهج ملوك بني أمية  
والعباس وولاتهم ، بل إن الكتاب كان يتخذ له أحيانا كتابا .

ونعنى بالكتاب هنا كتاب الرسائل . وكانت كثرتهم من العرب  
في عهد الخلفاء الراشدين وبني أمية . فلما أتى العباسيون كثر العنصر  
الأجنبي ، وأخذ العرب يختلفون من هذا الميدان لما كان ينزل بالكتاب من  
مهانة ومذلة . ولكن الأجانب كانوا يزاحمون العرب في علمهم بالعربية  
وحسن إلمامهم بأدائها . فشمعل ، كاتب عبد الملك بن مروان ، كان يقول

الشعر<sup>(١)</sup>. ويحيى بن يعمر الأهوازي ، كاتب يزيد بن المهلب ، كان  
فصيحا يلحن عنبسة بن سعيد والحجاج الثقفي<sup>(٢)</sup> .  
وهكذا تولى الكتابة جماعة عرب الأصل ، أو أعاجم تتقوا العربية  
وفقهوها وبرعوا في آدابها ؛ فكانوا عرب النشأة والتعلم . بل إن هؤلاء الأعاجم  
قد ذابوا في العرب ذوبانا بلغ ببعض نصاراهم أن يصوموا رمضان مجاملة للمسلمين  
كأبي إسحاق الصابي ، وذاع في النصارى والمجوس منهم حفظ القرآن  
والتفقه في الدين ، وكان كبارهم كخالد بن برمك يقربون الشعراء والأدباء  
ويحسنون جزاءهم .

وكتاب عبد الحميد الكاتب إلى زملائه يدل على نوع الثقافة التي  
أخذوا أنفسهم بها ، وكيف كانت عربية مستمدة من القرآن والدين . فهو  
يدعو الكتاب - كما سيأتي في الباب الثاني - إلى ثقافة عربية إسلامية ،  
قوامها القرآن والفقهاء الإسلامى وحفظ الأساليب العربية ؛ كما يطلب إليهم  
معرفة أيام العرب والعجم ، حتى تكون لهم عظة وتجارب تاريخية . وقد  
سئل عبد الحميد : ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع ،  
يعنى أمير المؤمنين<sup>(٣)</sup> .

وكان الكتاب يجودون فى صناعتهم ، وكان الخلفاء والملوك والولاة

---

(١) الكتاب والوزراء للجهشياري ، ط الحلبي ص ٤٠

(٢) الكتاب والوزراء ، ص ٤١ - ٤٢

(٣) الكتاب والوزراء ، ص ٨٢

يتعهدونهم ويراجعونهم فيما يكتبون أحياناً . فيروى أن عمر بن الخطاب استكتب زيادا كتاباً فنظر فيه ثم قال له : أعد ، فكتب غيره ، فقال له : أعد ، فكتب الثالث ، فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الأول ، ولكني ظننت أنه قدروى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت فكرهت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه ، لئلا يدخله العجب فيهلك<sup>(١)</sup> .

وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين من كتابه أن يكتبوا كتاباً في معنى واحد ، فأطال أحدهما وأوجز الثاني . فقال للموجز ، وقد نظر في كتابه : ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل : ما أرى موضع نقصان<sup>(٢)</sup> .

وكيفما كان الأمر فقد اقتضى انقطاع هذه الطائفة إلى الكتابة وتوفرهم عليها التفتن فيها ، والابتكار في أساليبها ، والنظر في صور البيان وقد امتدح الجاحظ طريقهم في الكتابة ، فقال ، بعد أن أورد صحيفة بشر بن المعتمر التي ستأتي : «أما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب ؛ فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً سوقياً»<sup>(٣)</sup> . وفضل الكتاب في باب البيان على الرواة واللغويين ، وقال إنه لم يعثر بعلم الشعر إلا عند أدباء الكتاب ؛

(١) الكتاب والوزراء ، ص ١٨

(٢) الصناعتين ، ص ١٨٢

(٣) البيان ، ج ١ ص ١٢٨

كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وعلق ابن رشيقي على هذا بقوله : « والكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلام لفظاً ، وأطفهم معاني ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف ... وقد قيل الكتاب دهاقين الكلام » . ثم بين أن هؤلاء القوم لا يتخذون الشعر تجارة ومرترقا وأن لهم مذهباً في البلاغة يقوم على اختيار السهل من الألفاظ والبعيد عن التكلف والإغراب (١) .

ويكفي أن يكون من بينهم عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع - وسيأتي الحديث عنهما - لا إدراك أثرهم في تاريخ البلاغة . وقد ألفت كتب في أدب الكتابة . فألف ابن قتيبة أدب الكاتب ، وألف الصولي أدب الكتاب ، وألف ابن دروستويه كتاب الكتاب . وهذه الكتب ، وإن كانت في جملتها لغوية تهنيدية ، فيها من البلاغة قدر مذكور . ويعنينا من هذه الكتب كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ، لأنه مؤلف في الحقبة التي نورخ لها .

وقد عرض ابن قتيبة في هذا الكتاب لبعض المسائل البلاغية ، فتحدث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ودعا إلى التفريق بين خطاب الأكفء والمساوين وخطاب الرؤساء والأساتذة ، وضرب له الأمثلة (٢)

(١) العمدة ، ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥

(٢) ص ١٥ - ١٦

وذكر الإغراب وتعقيد الكلام ، وقال إن من الشائن للكاتب ترك  
السهل من الألفاظ والمستعمل من المعاني <sup>(١)</sup> .

وورد التشبيه في قوله : « والربابة فأرة صماء . . . ويشبهون بها  
الرجل الجاهل <sup>(٢)</sup> . وقال : « وشولتها — العقرب — ما تشول من ذنبها ،  
وبذلك سميت النجوم تشبيهاً بها » <sup>(٣)</sup>

وفي باب : « تأويل كلام من كلام الناس مستعمل » <sup>(٤)</sup> يتحدث عن  
الأمثال المشهورة ، والاستعمالات المجازية اللغوية ، وعرض للاستعارة في قوله :  
« ويقولون ما بفلان طرق أى ما به قوة . وأصل الطرق الشحم فاستعير  
لكان القوة لأن القوة أكثر ما تكون عنده <sup>(٥)</sup> » ، وفي تعليقه على قول  
بعضهم ما به قلبه أى ما به حول بقوله : « هذا هو الأصل ، ثم استعير لكل  
مسالم ليست به آفة » <sup>(٦)</sup> .

وتحدث عن الإيجاز حديثاً أدنى إلى الدقة الاصطلاحية ، فقال تعليقاً

(١) ص ١٣ و ١٤

(٢) ص ١٥٣

(٣) ص ١٥٥

(٤) ص ٤٤ — ٥٥

(٥) ص ٤٤

(٦) ص ٥٥

على قول أبرويز « واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول » : ( يريد  
الإيجاز. وهذا ليس بمحمود في كل موضع ولا بمختار في كل كتاب ، بل  
لكل مقام مقال . ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في  
القرآن . ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز  
وكرر تارة للإفهام . وعلل هذا مستوفاة في كتابنا المؤلف في تأويل مشكل  
القرآن (١) . . . )

وهذا الكلام ، وما تلاه من الأمثلة ، يدل على فهم للإيجاز ومعرفة بسره  
ومن الكتب التي ألفت للكتاب غير ما سبق « معالم الكتابة  
ومغامم الإصابة » لابن شبت القرشي ، و « حسن التوسل إلى صناعة الترسل »  
للشهاب الحلبي الكاتب ، و « المثل السائر » لابن الأثير ، و « صبح  
الأعشى » للقلقشندي . وهذه كلها ذات أثر في تاريخ البلاغة ، لكنها  
متأخرة عن عصر نشأتها فلا نعرض لها .  
فالكتاب إذاً كانوا يتأملون في الأساليب ، ويجودون ، ويتحدث  
كبارهم في بعض مسائل البلاغة والبيان ، كما جعلت صناعتهم بعض العلماء  
يؤلف لهم كتباً تناولت بعض مسائل البلاغة .

أما المعلمون فلم ترد عنهم إلا إشارات مقتضبة تدل على عظم ما فاتنا  
من تعاليمهم . فإبراهيم بن جبلة الخطيب كان يعلم الفتيان الخطابة <sup>(١)</sup> ،  
وشبب بن شيبية كان يعلم فتيان بني منقر <sup>(٢)</sup> .

ومما يدل على كبير مكانتهم أن عمر الخطاب عني بأمرهم، وأرسل إلى  
عماله على الأقاليم ليوجهرا عناية المعلمين إلى ألوان خاصة من التربية  
والتعليم <sup>(٣)</sup> .

وقد دافع الجاحظ عنهم، بعد أن أورد طرفاً من المثالب التي يرمون  
بها ، ثم قسم المتقدمين منهم قسمين : معلمى أولاد الخاصة ، ومعلمى أولاد  
الملوك . وعد فيهم الكسائي، وقطرب، والضحاك ، وعامر الشعبي ، وكذلك  
الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومن جمع بين الكتابة والتعليم كعبد الحميد  
الكاتب وابن المقفع ، ثم قال : « وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى  
بصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين ، وحالهما  
من أول ما أذكر من أيام الصبا . » وهذه العبارة تدل على مبلغ تأثير الجاحظ

---

(١) البيان ، ج ١ ص ١٠٤

(٢) البيان ، ج ١ ص ٨٠

(٣) البيان ، ج ٢ ص ٣٨

بأثنين من معلميه في أيام نشأته ، لم ينس ذكرهما حتى آخر أيام حياته<sup>(١)</sup> .  
وصحيفة بشر بن المعتمر البلاغية ، التي دفع بها إلى الفتيان الذين يعلمهم  
إبراهيم بن جبلة الخطابة ، وقال لهم بعد أن استمع إلى قوله : « اضر بواعما  
قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً » — هذه الصحيفة تدل على أن مسائل  
البلاغة كانت من الأمور التي عنوا بها ، وحاولوا تعليم قواعدها للناشئة ..

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١



وكان للمتكلمين أكبر الأثر في تاريخ البلاغة العربية . فقد عنوا بالجدل الطويل حول تافه المسائل وعظيمها ، واتخذوا من الألفاظ وفهم دلالتها وعرضها على ألوان شتى وسيلتهم إلى الغلب في هذا الميدان .

والجاحظ المتكلم أوضح برهان على ما أمعن فيه أولئك القوم من الجدل - ويكفي أن تنظر في أى من كتبه لترى أثره واضحا فيه . فكتاب البيان والتبيين يدور حول البلاغة والخطابة ، والاحتجاج لرأى صاحبها على رأى صاحب الصمت والسكوت ، وإيراد حجج كل منهما مع ميل إلى نصرته الأول . وكتاب الحيوان يتألف من مناظرات شتى بين صاحب الكلب وصاحب القط ، أو بين صاحب الديك وصاحب الكلب ، أو بين صاحب الحمام وصاحب الديك ، أو بين صاحب الديك وصاحب الغربان ، أو بين غيرها من كل محتج لحيوان مفضل له على ما عداه ، حتى النمل تجدها صاحبها يؤثرها على غيرها ، ويطنب في ذكر مزاياها وفضائلها . وكتاب المحاسن والأضداد ، إن صحت نسبته إلى الجاحظ ، أبرز كتبه دلالة على جدله . فهو يعرض محاسن الشيء ومساوئه ، وإن كان يعرض أحيانا محاسن الشيء ومساوى ضده . لكن فيه قصدا صريحا إلى الإغانة على الجدل وتعليمه للناس . وهذه خطوة أبعد من سواها . بل إن روح الجدل لا تخفى كذلك في رسائله الأدبية ، حتى في (رسالة التربيع والتدوير) التي يسخر فيها من

أحمد بن عبد الوهاب ، تراه يداعبه برفعه وخفضه ، وإن كان الرفع والخفض في السخرية سواء ؛ كما تظهر واضحة في كتابه البخلاء ، إذ يحتج للبخل وعليه بل إن أحد الناس يطلب إليه الاحتجاج على الخمر بعد أن احتج لها من قبل ، فيجيبه إلى طلبه ولا يرى بأساً في إعلان هذا وتدوينه .

وكانت فتنة الجاحظ بالكلام وطريقة المتكلمين جامحة ، حتى تمنى أن يكون الأطباء متكلمين ، فقال : « وما أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء ؛ فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد » (١)

ومن طبيعة الجدل وصناعة الكلام العناية بدلالة الألفاظ أو التوجه نحو فن البلاغة . وجد هذا في تاريخ البلاغة اليونانية وفي تاريخ البلاغة العربية على سواء . فالسوفسطائيون أثروا في تاريخ البلاغة اليونانية ، والمتكلمون لا ريب كان لهم أكبر الأثر في تاريخ البلاغة العربية . وكان أول كتاب معروف في تاريخ البلاغة ، جمع كثيراً من المسائل البلاغية وبجانبها ، من عمل الجاحظ المتكلم ؛ كما كان للمتكلمين طريقة خاصة في معالجة البلاغة .

وكان عمدة هؤلاء القوم في جدلهم القرآن والسنة ، يستدلون بنصوصهما ويوجهونها نحو المعنى الذي يقصدون . ويبدو هذا واضحاً في كتاب الحيوان

حين يحتج صاحب كل حيوان له بما جاء عنه في القرآن ، كما عنوا بالنظر في هذه النصوص يدافعون عنها حيناً ويهاجمونها حيناً آخر ، ويثبتون المجاز فيها تارة وينفونه عنها تارة أخرى ، واقتضاهم طرق معاني جديدة ابتداء ألفاظ جديدة . ومن هنا كانت صلة هؤلاء القوم بالبحوث اللغوية والبلاغية وثيقة . كان كبارهم خطباء بلغاء تخيروا الألفاظ للمعاني ، واتسعوا في الاشتقاق اللغوي ، و « اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع <sup>(١)</sup> » ، ولم يكن بد من أن يقتدى الناس بهم وأن تسير الألفاظ التي اتخذوها ، ما دامت الأسماء القديمة عاجزة عن وسع المعاني الجديدة <sup>(٢)</sup> .

ولهذا كان الناس يفرعون إلى المتكلمين ، يطلبون عندهم فهم القرآن وكشف الملتبس عليهم . ومن هذا ما روى من قصة أبي الهذيل العلاف المتكلم المعتزلي مع الرجل الذي فزع إليه بعد أن عجز جميع الناس عن كشف ما غمض عليه في القرآن .

وقد قرر الجاحظ أن المتكلمين أقدر على الدفاع عن الدين وفهم القرآن من اللغويين ، فقال في معرض الحديث عن تفسير آية من القرآن : « ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً

(١) البيان ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) البيان ، ج ١ ص ١٠٨

بالكلام<sup>(١)</sup> . وأورد كذلك بعض أمثلة لنظر المتكلمين في آيات القرآن  
تدل على اتصال هذا النظر بمسائل البلاغة .

فتراه يعرض الجدل في تشبيهه من تشبيهات القرآن على أنه مسألة  
كلامية يمهد لها بقوله : « وسنذكر مسألة كلامية ، وإنما نذكرها لكثرة  
من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام » . والمسألة هنا هي اعتراض  
المعترضين على ضرب المثل في قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه  
آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه  
بها ولو كننه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثل الكلب إن  
يحميل عليه يأنث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين  
كذبوا بآياتنا ) . فهم يزعمون أن هذا المثل لا يجوز ضربه لمن آتاه الله  
الآيات فأعرض عنها واتبع الشيطان ، إذ ما يصح أن يشبه حال من أُعطى  
شيئاً فرفضه ولم يزد ، بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً ،  
وإن تركته شد عليك ونبح . كما يزعمون أن الله لم يقع موضعه لأنه ينشأ  
عن شدة العطش أو الحر أو التعب . فرد عليهم الجاحظ رد المتكلم قال :  
« ليس بعيداً أن يشبه الذي أوتى الآيات والأعاجيب والبرهانات  
والكرامات ، في بدء حرصه عليها وطلبه لها ، بالكلب في حرصه وطلبه ، فإن  
الكلب يعطى الجهد والجد من نفسه في كل حالة من الحالات . وشبه رفضه

وقذفه لها من يديه ، ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له . وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها . والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح ، مقبلاً إليك ومدبراً عنك ، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش . وعلى أننا ما نرمى بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة إلا وهي تلهث ، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها والذي طبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين (١) »

وأورد في موضع آخر مثلاً ثانياً لدفاع المتكلمين عن القرآن ، وتبرئته من مطاعن الطاعنين في مسألة تتصل كذلك بالتشبيه في قوله تعالى : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْمُعًا كَأَنَّهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ) . فقد قال « أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق؟! ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون إنسان كذلك ، والناس لا يفرعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق! » ، ويورد الجاحظ زعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تنبت ببلاد

---

(١) الحيوان ، ج ٦ ص ٦ — ٧

الذين لها منظر كرهه ، ثم يقول : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا  
معنى إلارؤوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم » .  
ثم يرد الاعتراض بقوله : « قلنا وإن كنا نحن لم نر شيطانا ولا صور رؤوسها  
لنا صادق بيده ... ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب  
المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقيح من كل قبح » . ويمهد  
لهذا القول بحديث عن الشياطين وإثباتها من أقوال الجاهليين والرسول  
وعمر والأخبار الشائعة بين العرب ، ويتبعه بإيراد زعم العامة في الغول  
والشيطان (١)

كما رد أقوال المعترضين على قوله تعالى : ( وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ  
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كَلَّمِي  
مِن كُلِّ الشُّمْرَاتِ فَاَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ  
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )  
ثم قاده الرد إلى الحديث عن المجاز العقلي في اللغة ، وقال : « ومن حمل  
اللغة على هذا المركب لم يفهم من القرآن قليلا ولا كثيرا . وهذا الباب هو  
مفخر العرب ، وبه قال وبأسبابه اتسعت »

فهو هنا يقرر أن فهم المجاز العربي أمر لا بد منه ، وأن جاهله لا يستطيع فهم شيء من القرآن

عنى المتكلمون بفهم القرآن ومافيه من ألوان التشبيه والمجاز والبديع ، وجادلوا في تعبيراته ، وأداهم هذا الجدل إلى التفنن في الأداء اللفظي ، والبحث في المسائل البلاغية ، حتى كان فيهم البلغاء والخطباء والأبيناء ، وحتى حاول بعض الفقهاء أن يتشبه بهم في البيان فأتى بالمضحك . قال الجاحظ . بعد أن تحدث عن الاستعمالات المجازية لذق وأكل في القرآن والشعر العربي : « وقال بعض طبقات الفقهاء ممن يشتهى أن يكون عند الناس متكلماً : ماذقت اليوم ذواقاً على وجه من الوجوه ، ولا على معنى من المعانى ، ولا على سبب من الأسباب ، ولا على لون من الألوان . وهذا من عجيب الكلام »<sup>(١)</sup>

وقد ألف بعض المتكلمين في إعجاز القرآن ونظمه ومعانيه - كما ستأتى الإشارة إليه - وبالغ بعضهم في الجدل حول القرآن كابن الراوندى ، «الذى لم يكن في نظرائه في زمنه أحدق منه بالكلام ولا أعرف بدقيقه وجليله»<sup>(٢)</sup> ؛ فقد ألف كتاباً يطعن فيه على نظم القرآن ، نقضه عليه الخياط وأبو علي الجبائى ، وهما من المعتزلة المتكلمين ، بل نقضه هو على نفسه<sup>(٣)</sup> .

---

(١) الحيوان ، ج ٥ ص ١٠

(٢) الفهرست ، ط مصر ص ٤

(٣) الفهرست ، ص ٥

وهكذا اتصل أصحاب الكلام والفلسفة بالبلاغة في دور نشأتها، فكان  
منهم واصل بن عطاء، وبشر بن المعتمر، وعمرو بن عبَّيد، وسهل بن  
هرون ممن عملوا في بناء البلاغة. كما اتصلوا بها في دور اكتمالها، فكان  
منهم قدامة والجرجاني والزخشي ثم السكاكي الذي باعد بينها وبين الفن  
الأدبي وفلسفها، وكثير ممن بعدهم من الشراح والمُلخصين.

وكانت لهم طريقة خاصة في معالجة البلاغة سنتحدث عنها من بعد.



وكان للفقهاء كذلك جولات في ميدان البلاغة . ذلك بأنهم اعتمدوا على نصوص القرآن والسنة في استنباط الأحكام الدينية ، فأدى بهم هذا إلى النظر في أسلوب القرآن وبيانه ، والتأمل في الألفاظ ودلالاتها ، وفي طرائق التعبير وصرايمها .

ولهذا رأينا محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وهو أول من كتب في أصول الفقه ، قد افتتح رسالته التي جعلت مقدمة لكتاب الأم بذكر البيان ماهو ، وقسمه إلى بيان القرآن ، وبيان السنة للقرآن ، والبيان بالاجتهاد وهو القياس . ثم ذكر أن في القرآن عاما يراد به العام ، وعاما يدخله الخصوص ، وعام الظاهر وهو يجمع العام والخاص ، وعام الظاهر ويراد به الخاص .

وتوسع من بعده في البحوث اللفظية البلاغية حتى صار الأصولي والفقهاء ، حين فشت العجمة ، في حاجة ماسة إلى تمام الإلمام بفن البلاغة العربية ، مع بقية فنون اللغة ، وحتى صارت بحوث البلاغة تحوى القسم الأكبر في مقدمة علم الأصول . وقد زادت العناية بهذه المقدمة حتى صارت أهم ما يعنى به الأصوليون .

وشارك المفسرون في البحث البلاغي ، ببيان ما في الآيات القرآنية من بيان فني وقوة أداء . وكان تفهم القرآن ، منذ عصر النبي ، مدعاة لا ريب إلى النظر في أسلوبه ، كما كان لأصحاب الرأي حرية واسعة في تأويل معانيه . واعتاد المفسرون ، بعد العصر الأول ، أن يشرحوا ما في الآية من بلاغة ونحو وصرف ، كما اعتاد البلاغيون أن يستمدوا أولى أمثلتهم من القرآن .

وقد أورد الجاحظ طرقاً من تأويل المفسرين . ومن هذا ما نقله من قول النظام : « لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامّة ، وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم . وليكن عندك عكرمة ، والسكبي ، والسري ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان ، وأبو بكر الأصبهاني في سبيل واحدة . وكيف أثق بتفسيرهم ، وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا في قوله عز وجل ( وأن المساجد لله ) : إن الله عز وجل لم يعن بهن المساجد مساجدنا التي نصلي فيها ، بل إنما عنى الجباه ، وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة . وقالوا في قوله تعالى ( أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » : إنه ليس الجمال والنوق وإنما يعنى السحاب . . . وقالوا في قوله تعالى « ربّ لم حشرتني أعشى وقد كنتُ

« بصيراً » — قالوا : يعنى أنه حشره بلا حجة <sup>(١)</sup> .

وكان يبغض تأويلهم البعيد ، فقال عنهم بعد إيراد ما سبق وغيره :  
« وليس يؤتى القوم إلا من الطمع ، ومن شدة إعجابهم بالغريب من  
التأويل » <sup>(٢)</sup> .

وقال فى موضع آخر ، بعد أن ذكر أنواعا من التأويل : « تأولوا قوله  
تعالى (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) ،  
ولم يهلك الناس شيء كالتأويل » <sup>(٣)</sup> .

وكيفما كان الأمر فقد كان هذا التأويل مؤدياً ، فى كثير من الأحيان ،  
إلى النظر فى المجاز وألوان البيان .

---

(١) الحيوان : ج ١ ص ١٦٨

(٢) الحيوان : ج ١ ص ١٦٩

(٣) الحيوان : ج ٦ ص ١٦

وكان من أكبر العاملين في بناء البلاغة جماعة اللغويين ، والنحاة ،  
والرواة . فقد عني اللغويون والنحاة ببحث الألفاظ ودلالاتها ، والعربية  
وقواعد بيانها ، وعرضوا المافي النصوص من بلاغة عند شرحها ، كما نقل الرواة  
أحاديث الأدب وتحدثوا في الاستعمالات المختلفة للكلمات .

والجاحظ يذكر هذه الجماعة ، فيقول : « طلبت علم الشعر عند  
الأصمعي ، فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش ، فوجدته  
لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيده ، فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل  
بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلى عند أدباء  
الكتاب كالحسن بن وهب ، وعبد بن عبد الملك الزيات » <sup>(١)</sup> .

وقال : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية  
رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ،  
ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل » .

ولكن هذا الحكم لا يؤيده ما ورد في كتب الأدب من أنباء هذه  
الجماعة . فمن ذلك ما ورد من أن الأصمعي سئل عن بشار ومروان بن أبي  
حفصة . أيهما أشعر ؟ فقال . بشار . فسئل عن ذلك ، فقال . لأن مروان

سلك طريقاً أكثر من يسلكه ، فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك ، وأحسن فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً. ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل .  
وقال : « زهير والنابغة من عبيد الشعر <sup>(١)</sup> » ، كما قال : « الزحاف في الشعر كالرخصة في الفقه لا يقدم عليها إلا فقيهه » <sup>(٢)</sup> . وحدث التوزي قال : « قلت للأصمعي من أشعر الناس ؟ قال : الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينتقى كلامه قبل القافية ، فاذا احتاج إليها أفاد معنى » . ثم سأل الأمثلة فأعطاه إياها ، وذكر له موضع الشاهد فيها <sup>(٣)</sup> .

وبدا المبرد الحديث في باب التشبيه بقوله : « وهذا باب طريف . . . وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم » . ثم يقول إن أحسن ذلك ، في رأى الرواة جميعاً ، ما جاء لامرئ القيس في كلام مختصر ، أي بيت واحد ، من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين ، وهو قوله .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً

لدى وكرها العنَّابُ والحشْفُ البالى

(١) العمدة ، ج ١ ص ٨٧

(٢) العمدة ، ج ١ ص ٩١

(٣) العمدة ، ج ٦ ص ٢٦

فالرواة إذا كانوا يتحدثون في التشبيه ، واللغويون كانوا يعرضون لعلم  
الشعر الذي جردهم الجاحظ منه وقصرهم على الغريب ومعرفة .  
بل إن الآية على الجاحظ نجدتها عند الجاحظ نفسه ، فقد نقل تعريف  
الأصمعي للبليغ بأنه من طبق المفصل وأغناك عن المفسر ، وعنى بتأويله  
وتفسيره (١) .

كما نقل قول ابن الأعرابي : « قال لي المفضل الضبي : قلت لأعرابي  
منا : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز من غير عجز ، والأطناب في غير خطل .  
قال ابن الأعرابي : فقلت للمفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول  
وتقريب البعيد . قال ابن الأعرابي : قيل لعبد الله بن عمر : لودعوت الله  
لنا بدعوات ! فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ! فقال رجل : لوزدتنا  
يا أبا عبد الله ! فقال : نعوذ بالله من الإسهاب » (٢) .

وقال الجاحظ إن الرواة هم الذين سمو ألوان التعبير البياني المستحدث  
باسم البديع (٣) .

وقد ألفوا كتباً في البلاغة ، أو على الأقل فيما يتصل بها . فيونس بن  
حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ له كتاب معاني القرآن (٤) ، والكسائي المتوفى  
سنة ١٩٧ هـ له كتابان معاني القرآن (٥) ، وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ هـ

(٢) البيان ، ج ١ ص ٨١

(٤) الفهرست ، ص ٦٣

(١) البيان ، ج ١ ص ٨٦

(٣) البيان ، ج ٣ ص ٢٤٣

(٥) الفهرست ، ص ٩٨

كتاب إعجاز القرآن ، وغريب القرآن ، ومعاني القرآن <sup>(١)</sup> ، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٠ له كتاب معاني الشعر <sup>(٢)</sup> ، والأخفش المتوفى سنة ٣١٥ له كتاب تفسير لغة القرآن <sup>(٣)</sup> ، وأبو عبيد القاسم المتوفى سنة ٣٣٤ له كتاب معاني القرآن <sup>(٤)</sup> ، وأبو العميثل المتوفى سنة ٥٣٤ له كتاب معاني الشعر <sup>(٥)</sup> وأبو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ له كتاب الفصاحة <sup>(٦)</sup> ، والمبرد المتوفى سنة ٣٨٥ له كتاب الكامل ، وكتاب البلاغة ، وكتاب معاني القرآن <sup>(٧)</sup> ولو بلغتنا جميع هذه الكتب لاستطعنا تقدير جهدهم في دقة ، ولكنه يمكننا بدلالة الشاهد على الغائب أن نتبين في مقارنة هذا الجهد .

وسياتى الحديث عن أبي عبيدة وكتابه . وبين أيدينا كتاب الكامل للمبرد . وقد بين مؤلفه الغرض منه في قوله : « والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً » <sup>(٨)</sup> . وهذا غرض لغوي يصرف ملتبس البلاغة عن النظر في الكتاب ، لكن بالكتاب على هذا بحوثاً بلاغية لا نجد لها مثيلاً عند معاصريه تمتاز بالتقسيم والتفصيل .

- |                    |                      |
|--------------------|----------------------|
| (١) الفهرست ، ص ٨٩ | (٢) الفهرست ، ص ٨٢   |
| (٣) الفهرست ، ص ٧٨ | (٤) الفهرست ، ص ١٠٦  |
| (٥) الفهرست ، ص ٧٣ | (٦) الفهرست ، ص ٨٧   |
| (٧) الفهرست ، ص ٨٨ | (٨) الكامل ، ج ١ ص ٢ |

قسم الكلام إلى ثلاثة أضرب : أصل وكناية ومثل ، فقال :  
« والكلام يجري على ثلاثة ضروب ، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه  
ومنه ما يكنى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الوصف » . ثم  
ذكر أن الكناية تقع على ثلاثة ضروب ، أحدها ، التعمية والتغطية <sup>(١)</sup> ،  
وثانيها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ،  
وثالثها التفعيم والتعظيم . وضرب الأمثلة لكل منها <sup>(٢)</sup> . والأول يعني ترك  
الاسم والدلالة عليه باسم آخر أو وصف ، كالتكنية عن الثريا بنت الأصغر  
بنجم الثريا <sup>(٣)</sup> . ومن الثاني استعمال القرآن الرفث والملامسة كناية عن  
الجماع . وكذلك استعمال الجلود كناية عن الفروج في قوله تعالى : ( وقالوا  
لجلودهم لم شهدتم علينا ) .

وجاء عنده فصل عن التشبيه ، تحدث فيه مطناً عن التشبيهات العجيبة  
والمصيبة والحسنة والمستحسنة والمتجاوزة والمفرطة والغريبة والمفهومة وغير  
المفهومة والجامعة ، ثم أجمل القول فذكر أن العرب تشبه على أربع أضرب :  
تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد <sup>(٤)</sup> كما تحدث  
عنه في عدة مواضع أخرى عدا هذا الباب <sup>(٥)</sup> .

وعالج بعض مسائل أخرى بلاغية في مواضع متفرقة من كتابه ، فتحدث

- 
- (١) ج ٢ ص ٤٠ - ٤١  
(٢) ج ٢ ص ١٢  
(٣) ج ١ ص ٢٥٨  
(٤) ج ٢ ص ٦٥ - ١١٦  
(٥) ج ١ ص ٢٢ و ٢٣ و ٦١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٢٩ و ١٤١ و ٣٠٠  
و ج ٢ ص ١٦٥ و ١٦٦



عن التعقيد اللفظي والمعنوي ، حتى قال : « ومن أقبح الصور وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني قوله :

وما مثله في الناس إلا مملوكاً أبو أمه حتى أبوه يُقَار به »  
وشرح البيت وما فيه (١) .

وكان المجاز عنده بمعنى التفسير والتأويل (٢) . ومن هذا قوله تنسيراً للفظ

الطعام : « وقوله ياطغام الأحلام ، فمجاز الطغام عند العرب من لا عقل له ولا مذمة عنده » (٣) .

أما المثل فأتى بمعنى المجاز أو الاستعارة . ومن هذا قوله « الموطأون أكنافاً مثل ، وحقيقته أن التوطئة هي التذليل والتمهيد ، يقال في المثل فلان في كنف فلان ، كما يقال فلان في ظل فلان وفي ذرى فلان وفي ناحية فلان وفي حيز فلان » (٤) .

وفي قوله : « عماسمى بعد استعارة تبعية حرفية : « في المثل ذهب فلان في حاجتي فارتدع عنها . ومثل هذا قولهم : فلان على الدابة وعلى الجبل أى فوق كل واحد منهما ، ثم تقول : فلان عليه دين تمثيلاً » (٥) ، وفي قوله : عن المجاز العقلي : ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا أكل عليه الدهر وشرب ، إنما يريدون : أنه أكل هو ، وشرب هو دهرًا

(٢) ج ١ ص ١٨٨ و ٢٤٥ و ٣٠١

(١) ج ١ ص ١٤ و ١٥

(٤) ج ١ ص ٣

(٣) ج ١ ص ١٤

(٥) ج ١ ص ٢٠

طويلاً... والعرب تقول نهارك صائم وليلك قائم، أي أنت قائم في هذا،  
وصائم في ذلك، كما قال الله عز وجل: (بل مكر الليل والنهار). والمعنى،  
والله أعلم: بل مكركم في الليل والنهار» (١). ونحو هذا كثير. (٢)

لكن لفظ الاستعارة ورد عنده كذلك في قوله: «والمغل الذي عنده  
غلول وهو ما يختزن ويحتجن، ويستعمل مستعاراً في غير المال» (٣).

وفي قوله: «ويقال يصصرصر يعني يصوت، يقال: صرصر البازي  
والصقر وما كان من سباع الطير، ويقال صرصر العصفور. وأحسبه مستعاراً  
لأن الأصل فيه أن يستعمل في الجوارح من الطير» (٤). وقوله في تفسير  
مؤذن بشحاج: إنما هو استعارة في شدة الصوت، وأصله للبعغل، والعرب  
تستعير من بعض لبعض» (٥)

وقد يكون كتابه البلاغة أدخل في البحث البلاغي بدلالة اسمه.  
أما كتابه المعاني، مثل كتب غيره التي بهذا الاسم، فإنه يدل على مصوغاتها  
وله في آخر باب التشبيه: «والتشبيه باب لا آخر له، وذكرنا منه طرفاً  
لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني».

ولعل في هذا السكفاية للتدليل على الأثر القوي للغويين والرواة  
في تاريخ البلاغة العربية.

---

(١) ١٠٤ ص ١٠٤ (٢) ١٠٤ ص ١٠٤ و ١٠١ و ٩٧ و ٩٢ و ٧٦ و ٧١ و ١٥٢ و ١٩٤

١٩٥ و ٢١٣ و ٢٢٠ و ٢ ص ١٠٣ (٣) ١ ص ١٧٢

(٤) ١ ص ١٠٥ (٥) ١ ص ١٣٤ و ١٣٥

ولا ينبغي اغفال الشعراء . فقد كانوا في الجاهلية مصدر الأحكام الفنية كما تصورها الروايات القديمة . وكانت لهم كذلك مثل هذه الآراء في العصور الأولى للإسلام . وسيأتى طرف منها . ويزخر كتاب الأغاني والعمدة لابن رشيق بالكثير . وظلت الحال كذلك الى سنة ٢٤٧ فآلف الخليفة الشاعر ابن المعتز كتابه البديع . وقد تحدث فيه عن نفسه فقال . « وما جمع فنون البديع ، ولا سبقني اليه أحد » ، كما قال فيه الشعراء ، « . . . البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم ، فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو »<sup>(١)</sup>

وتحدث في هذا الكتاب عن خمسة فنون ، رأى قصر البديع عليها ، وهي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي ، كما أورد محاسن كلامية أخرى ، ترك لمن يشاء الرأي في عدها من فنون البديع ، وهي . اثنا عشر : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيده المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، وهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والافراط ، وحسن التشبيه ، وحسن الابتداءات .

(١) كتاب البديع ، ط هرتفورد سنة ١٩٣٦ ص ٥٨ .

وكان غرضه من تأليفه « إثبات أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب المدح »<sup>(١)</sup> ، وإن كان المحدثون قد أسرفوا في استعماله . ولهذا يتحدث عن كل لون من هذه الألوان ، ثم يورد له الأمثلة من القرآن ، فالحديث النبوي ، فكلام الصحابة ، فالشعر قديماً وحديثاً . وهو يحافظ على هذا النظام متى كان لديه من الأمثلة ما يكفي لاستعماله ، ولكنها كثيراً ما تقصر عن هذا الاستكمال ، خلا القرآن الكريم ، فإنه لم يضل فيه مثلاً لكل لون اللهم إلا المذهب الكلامي .

وقد كتب المستشرق كراتشكوفشكي - ناشر الكتاب - مقدمة بالإنجليزية جاء فيها عن أثره في تاريخ علم البديع : « إن لهذا الكتاب أثراً قوياً فعلاً في تطور هذا الفرع من المعرفة الذي ألف فيه ، وقل من الكتب في موضوعه من يدانيه تأثيراً في الأجيال التي أعقبته . بل ندر أن يجد الانسان في أي كتاب مسألة أساسية ليس لها أصل في كتاب ابن المعتز الذي نهج نهجاً جديداً »<sup>(٢)</sup> .

ولا جرم كذلك أن الكتاب قد أثر في تاريخ علوم البلاغة كلها ، فقد كان البديع لذلك العصر - كما سيأتي - يشمل المعروف من ألوان البلاغة كلها وقد تحدث ابن المعتز فيه عن الاستعارة والتشبيه والكناية . ولا نستطيع الحكم على مقدار ابتكاره في هذه الفنون والمحاسن . لكن التشبيه

والاستعارة والتعريض أو الكناية قد سبق بها ، والمذهب الكلامي منقول  
عن الجاحظ . ومهما يكن من شيء فلو لم يكن له من جهدي سوى التنظيم  
والجمع لكفاه .

\*\*\*

هذه الطوائف كلها عملت في نشأة البلاغة العربية ، والواقع أنه لم يكن  
هناك فاصل واضح بين كل واحدة وسواها . فكثيراً ما يكون النحوي  
لغويًا وراوية فقيهاً ، وكثيراً ما يكون المعدود في طائفة مذكوراً في غيرها .  
والتأليف لذلك العصر مثل لهذا الاختلاط .

— ١١ —

وبعد : فهل كانت نشأة علم البلاغة عربية خالصة ، أو مشوبة بعوامل أجنبية .  
رأينا أن البلاغة العربية قد وجدت لها بذور في آخر العصر الجاهلي  
نماها الاسلام ، ومادار حول القرآن من بحث وجدل ، وما أوجدته الحياة  
الاسلامية من طوائف متعددة ، تعنى بالبلاغة وحسن البيان ، وتعتمد في عنايتها  
على التراث العربي القديم وما يتصل به .

وإذا صح أن نقارن بين بحوث البلاغة اليونانية ، وبحوث البلاغة  
العربية ، فلن يكون هذا في دور نشأتها ، وإنما يكون في دور نموها وتعقدتها  
على أن الأثر الأجنبي لا يعدم دلائله في تاريخ البلاغة لعصورها الأولى .  
فالجاحظ قد نقل من الفرس واليونان والهنود تعريفات للبلاغة ، كما  
أورد ترجمة صحيفة هندية في البلاغة . وذكر في معرض مطاعن الشعوبية على  
العرب قولهم : « ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب

ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند ... فهذه الفرس ورسائلها وخطبها  
وألفاظها ومعانيها . وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها . وهذه  
كتبها في المنطق التي قد جعلت الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ،  
والخطأ من الصواب . وهذه كتب الهند في حكمها وسيرها وعللها . فمن قرأ  
هذه الكتب عرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم ، وعرف أين  
البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة<sup>(١)</sup> .

وحين رد الجاحظ على قولهم ، ذكر أن الخطب للعرب والفرس فقط  
ولكنه قرر أن الهند لها معان مدونة ، وكتب مجلدة ، وأن اليونان لها  
فلسفة وصناعة ومنطق ، وأن صاحب المنطق كان عليما بتمييز الكلام  
وتفضيله ومعانيه وخصائصه ، وأن جالينوس كان أنطق الناس ، فأقر جملة  
الكلام السابق . ولكنه فضل العرب على هؤلاء جميعا بالارتجال والبداهة  
وعدم المكابدة والمعاناة<sup>(٢)</sup> .

ولعل الشعوب كانوا يفخرون بما عندهم من أقوال في البلاغة والبيان ،  
ولعل العرب كانوا يستمعون إليها فيحاولون أن ينسبوا إلى العربية مثلها ،  
وأن يستخرجوا من أقوال القدماء ما يثبت معرفتهم بمعانيها بل بما هو أكمل  
منها ، ولعل هذا كان من دوافع الجاحظ لأن يضع كتابا في الخطابة يثبت  
فيه فضل العرب وسبقهم ، وذلك هو كتاب ( البيان والتبيين ) .

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٦ — ٧

(٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٤ — ١٥

وفي كتاب البيان والتبيين رواية ، قد تدل على نشاط الأجانب في تعليم الناس أصول البلاغة ، فيروى أنه قد قيل لرسموس اليوناني « ما بال رسموس يعلم الناس الشعر ولا يستطيع قوله؟ قال : مثله مثل المسن الذي يشخذ ولا يقطع » وهذا صريح في أن رسموس اليوناني كان يعلم الشعر للناس ويلقنهم أصوله ، وقوله هذا يذكر بتفريق أرسطو بين نقد الشعر وقرضه وتدقيقه : ورده كلا من الثلاثة إلى ملحة تغاير الأخرى .

وقد يطعن على هذه الرواية بأن الجاحظ وضع رسموس في باب (النوكي والمجانين) . لكن ردها الطعن غير عسير . ذلك بأن كل ما أورده الجاحظ عنه يدل على عقل سليم ، بل راجح ، وتعليمه الناس الشعر ينفي عنه الحمق والجنون (٢) .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦٥

(٢) ألح عليه بالشتيمة رجل وهو ساكت ، فقيل له : يشتمك مثل هذا وأنت ساكت ! فقال : أرأيت إن نبحك كلب أتنبحه ، أو رمحك حمار أترمحه وكان إذا خرج في الفجر يزيد الفرات ، ألقى في دواره بابه حجر حتى لا يعاني دفعه إذا رجع . وكان كلما رجع وجد الحجر مرفوعا والباب منصفقا ، فعلم أن أحداً يأخذ الحجر من مكانه ، فكمن لصاحبه يوماً ، فلما رآه قد أخذ الحجر قال : مالك تأخذ ما ليس لك ؟ قال : لم أعلم أنه لك . قال : قد علمت أنه ليس لك !

ورآه رجل يأكل في السوق فقال : ما بال رسموس يأكل في السوق ! قال إذا جاع في السوق أكل في السوق .

فهؤلاء الأجانب كانوا ينقلون معارفهم وكان العرب يتقبلونها كما هي حيناً ، ويخضعونها لماضيهم العربي القديم وحياتهم الاسلامية الحديثة حيناً آخر ، ويشيرون حولها جدلاً طويلاً وينقضونها حيناً ثالثاً ، ولكن موضوعات هذا الجدل نفسها كانت تؤثر فيهم ، كما هو الشأن في جميع المتجادلين .

وكانوا ، بحسن إلمامهم بالعربية ، قادرين على الملائمة بين المعارف الأجنبية وطبيعة اللغة العربية . فعبد الحميد الكاتب كان يطبق أصول الفارسية على الكتابة العربية ، وموسى الأسوارى الفصيح في الفارسية والعربية ، ما كان يفسر القرآن بهما جميعاً<sup>(١)</sup> . ومن المحتمل أن يكون هذا ومثله يطبقون قواعد البيان الأجنبي في فهم القرآن وتفسيره ، وأن يتحدثوا معاً عما ورد فيه من حقيقة ومجاز وغيرهما كما يتصورونها في لغتهم الأصلية . والمتكلمون أصحاب فلسفة وجدل ومنطق ، وصلتهم بالبلاغة وثيقة كما سيأتي ، والفلسفة والمنطق علمان أجنبيان . وقد رأينا بعضهم يشترط لبراعة في البلاغة تمام الإلمام بالمنطق ، فمن القريب أن يدخل الأثر الأجنبي في البلاغة من طريقهم .

والفهرست لابن النديم يروي أن كتاب الخطابة نقل قبل نقل إسحاق المعروف ، فيقول : « الكلام على ريطوريقا ومعناه الخطابة يصاب بنقل قديم . وقيل : إن إسحاق نقله إلى العربي<sup>(٢)</sup> » .

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٣٤

(٢) الفهرست ، ص ٣٩٤



ويقول الأستاذ أمين الخولى تعليقا على هذا النص : « وإسحاق هذا هو إسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ . فاذا كان للكتاب نقل قديم قبل نقل إسحاق ، وابن النديم يجعل النقلة القدماء هم الذين كانوا أيام البرامكة ، فيكون الكتاب على هذا قد نقل إلى العربية في منتصف القرن الثامن الهجرى أو على الأكثر فى أواخره<sup>(١)</sup> ؛ وكانت إذاً كل بحوث الخطابة وأشباهاها « بين يدى القوم فيما يتدارسونه باسم المنطق فى آخر القرن الثامن الهجرى . وهذا كاف وحده دون تعليق ما لبيان تأثير هذا المنطق فى البلاغة ونشأة فنونها »<sup>(٢)</sup> .

ويصح كذلك القول بأن كتاب البيان والتبيين ألف معارضة لخطابة أرسطو ، كما ألف كتاب الحيوان معارضة لحيوان أرسطو . وملتمس الدليل لا يتعذر عليه وجوده . ذلك بأن كتاب البيان دار حول الخطابة ، كما سيأتى ، فى عصر خمدت فيه الخطابة .

وليس الجاحظ وحده هو الذى كتب فى هذا الموضوع ، بل إن المروزي المتوفى سنة ٢٧٤ هـ له كتاب البلاغة والخطابة<sup>(٣)</sup> . ومن قبله ألف الفضل بن نوبخت ، الذى كان ينقل فى خزانة الرشيد ، كتاب التشبيه

(١) محاضرة البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ، ص ١١

(٢) محاضرة البلاغة العربية ، ص ١٣ (٣) القهرست ، ص ٢١٥

والتمثيل (١) : وأقرب من هذا أن نفترض رؤية الجاحظ لشعر أرسطو ،  
فقد أشار إليه في قوله : « واما الشعر فحديث الميلاذ صغير السن . أول من  
تهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلل بن ربيعة ،  
وكتب أرسططاليس ومعلمه أفلاطون » .

فالآدنى إلى الفهم من قوله كتب أرسططاليس ، في معرض الحديث  
عن الشعر ، أنه يعني كتابه الشعر ، وأنه قد رآه أو سمع به على الأقل . وقد  
لا يعارض هذا أن أول نقل لكتاب أرسطو — حسب ما تروييه كتب  
الفهارس — هو نقل أبي بشر متى بن يونس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، فمن المحتمل  
أنهم كانوا يتذاكرون هذه الكتب على أيدي الأجانب من فارس والهند  
واليونان . وقد عرف الجاحظ كتاب الحيوان لأرسطو ، مع أن ناقله هو ابن  
زرعة من مترجمي النصف الثاني للقرن الرابع .

على أن من ينكر رؤية الجاحظ لخطابة أرسطو يجد أدلة قوية . فلوانه  
رأى هذا الكتاب أو سمع مسائل منه ، لعرض لها ولناقشها كما صنع مع  
أرسطو في حديثه عن الحيوان ؛ وبخاصة مع ما عرف عن الجاحظ من  
التكرار والبدء والإعادة في الموضوع الواحد ، وحسن ترديده لما يسمعه  
حتى في أتفه المسائل .

ولو انه علم به لما قال : « والبديع مقصور على العرب »<sup>(١)</sup>. وقد يبدو هذا النص متناقضاً مع ما نقله عن بلاغة الأجنب ؛ لكن هذا التناقض قد يتلاشى ، حين نذكر أن البديع عند الجاحظ يعنى فنون التعبير المستحدثة: من مجاز وتشبيه وكناية وغيرها، وأن البلاغة كانت تعنى عنده شيئاً آخر سيأتى بعد .

وقد ذكر كتب أرسطو: الكون، والفساد، والمنطق، والحيوان ، ولم يعرض لكتاب الخطابة بذكره ، وعد مختلف العلوم والفنون والصناعات التى جاءت من اليونان إلى العرب ، ولم يشر إلى البلاغة<sup>(٢)</sup> .

ونص ابن النديم على احتمال إصابة كتاب الخطابة بنقل قديم ، لا يدل على أن هذا الكتاب ، بهذا النقل المحتمل ، كان متداولاً فى أيدي الكتاب إن لم يدل على أنه كان مجهولاً فى المجهولات .

وابن تيمية نفسه ، وهو من أنصار التأثير الأجنبى فى نشأة البلاغة ، الكى يقول إن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز دخل العربية عن طريق الفلسفة الأجنبية - يقرر أنه شىء حادث بعد القرون الثلاثة الأولى<sup>(٣)</sup> . ولا ريب أن البلاغة قد نشأت فى هذه القرون الثلاثة .

\*\*\*

(١) البيان ، ج ٣ ص ٣٤٣ (٢) الحيوان ، ج ١ ص ٤١

(٣) كتاب الإيمان ، ط مصر ، ٣٤

ولهذا كله ، ولما مر في هذا الباب جميعه عند ذكر الطوائف المختلفة التي أثرت في نشأة البلاغة ومادة بحوثها ، وللتدرج الطبيعي الذي بدأ من العصر الجاهلي - يستطيع الباحث أن يقرر مطمئناً أن نشأة البلاغة كانت عربية ؛ لكنه لا يستطيع أن ينكر أن العنصر الأجنبي قد اتصل بها ، فأخذ يؤثر في تطورها ، ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية ويسيطر عليها ، حتى إذا اشتد سلطان هذا العنصر صارت فلسفة خالصة على أيدي السكاكي وأصحابه .

---

# الباب الثاني

البلاغة قبل الجاحظ

## العصر الجاهلي

وردت بعض ألوان بيانية في أقدم المأثور من الشعر الجاهلي . فمعلقة  
امرئ القيس ، كغيرها من المعلقة ، فيها من التشبيه وأنواع المجاز كثير .  
ولا نعرف في دقة مدى تأمل الجاهليين في هذه الألوان وحدثهم عنها .  
ولعله لو انتهى إلينا جميع ما قالته العرب ، لجاءنا شيء أوفر في هذا الباب .  
أما ما بلغنا من أقوال ، على ما فيه من شك ، فلا يعدوا ألفاظاً  
عامة: من نحو ما يروى عن أكرم بن صيفي أنه قال — ولا نعلم متى فقد  
أدرك البعث وإن لم يسلم — البلاغة الإيجاز<sup>(١)</sup> . وكأنا قد أنعم النظر  
في الأساليب ، وسار في خطبه على قاعدة معينة هي قاعدة الإيجاز . ويقال  
إنه كان يتخذ كتاباً ، وكان يأمرهم ، إذ يكتبون ملوك الجاهلية ، بالفصل  
بين المعاني المستقلة والوصل بين المعاني المتصلة ، وكأنه أدرك معنى الفصل  
والوصل وحال استعمال كل منهما .

وكان في العرب كهان يزعمون أن مع كل منهم رثياً من الجن يلهمه القول  
كما يلهم الشاعر شيطانه . وكان الناس يتحاكمون إليهم ، ويؤمنون برأيهم .  
وقد اصطنع هؤلاء الكهان الأسلوب المسجع يحكمون وينفرون به<sup>(٢)</sup> .

(١) عروس الأفراح ، ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) البيان والتبيين ، ط السند وبني الأولى ، ج ١ ص ١٩٥

وإذا كان الشاهد يدل على الغائب ، وكان الجاهليون بعين عن  
التفكير العلمى الصحيح - كان كل حديثهم ، فى هذا الباب ، يتصل  
بأوصاف عامة للبلاغة : من نحو وصف أ كتم لها بالايجاز، وكان كل قنهم  
يقوم فى جملته على الخبرة بأساليب التأثير ، كما يبدو من اصطناع  
الكهان الأسلوب المسجع الذى يسهل حفظه كالشعر ، ويقوى به التأثير  
فى نفوس السامعين .

## العصر الإسلامي

وأتى الاسلام، فتحدث القرآن عن البيان وأثره، كالذي جاء فيه من أن موسى سأل الله حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، فقال عن حبسة بيانه: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) . وأنبأنا الله عن تعلق فرعون بكل سبب، حين خبر بقوله: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ) . وقال موسى: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رَدْءًا يُصِدِّقُنِي) ، وقال: (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي) ، فاستجاب الله دعاءه، ومكّنه من حسن الأداء لرسالته (١) .

ومن الله على الإنسان بتعليم البيان فقال: (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (٢) ، وقال: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ) . ومدح القرآن بالبيان والعربية والإيضاح والتفصيل، وسماه فرقانا، وقال: «عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» ، وقال: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا قرآنًا عَرَبِيًّا) ، وقال: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) ، وقال: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

---

(١) البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٥ . (٢) وقبل إنه عنى بالإنسان هنا النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون المراد بالبيان القرآن الذي فيه بيان كل شيء . وقيل الانسان آدم أو اسم جنس يشمل جميع الناس؛ ويكون المعنى أنه فضله بيانه على جميع الحيوان. (لسان العرب، مادة بيان) .



وذكر لنبيه حال قریش في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام ، والعرب  
وما فيها من الدهاء و بلاغة الألسنة والدد عند الخصومة ، فقال : ( إذا  
ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُواكم بالسنة حداد ) ، وقال : لِيُنذِرَ به قوماً لداً ) ،  
وقال : ( ويشهدُ اللهُ على ما في قلبه وهو الدُّ الخِصَام ) ، وقال :  
( أَلْهَتْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ الاجْدَلَابِلُ هُمُ قومٌ خصمون ) .  
ثم ذكر خلاية السننهم فقال : ( وان يقولوا تسمع لقولهم ) ثم قال : ( ومن  
الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ) مع قوله : ( واذا تولى سعى في  
الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ )<sup>(١)</sup>

وقال تعالى : ( وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ )  
لأن مدار الأمر على البيان والتبيين والافهام والتفهيم . وضرب الله مثلاً  
لعى اللسان ورداءة البيان ، حين شبه أهله بالنساء والولدان ، فقال تعالى :  
( أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الحَلْمِيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ )<sup>(٢)</sup>

وعرفت في الحديث النبوي أمثال كثيرة ومجازات بليغة<sup>(٣)</sup> كما نسب  
إلى النبي رواية القول البليغ ومدح البيان . فيقال : « إن رسول الله هو  
الذي روى كلام قس بن ساعدة ، وموقفه على جملة بعكاظ ، وأمر عظته .  
وهو رواه لقریش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه<sup>(٤)</sup> ،

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٦

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ : ص ٢٧

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ : ص ٢٧ - ص ٣١

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ : ص ٢٦

ويروى أن رسول الله لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر قال عمرو: «مانع لحوذته، مطاع في أذيته». فقال الزبرقان: (أما إنه قد علم أكثر مما قال، لكنّه حسدني شرفي). فقال عمرو: «أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر زمر المروءة، لثيم الخيال، حديث الغنى». فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عين رسول الله، قال: يا رسول الله! رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت. وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة! فقال النبي بعد ذلك: إن من البيان لسحرا<sup>(١)</sup>.

وقال العباس بن عبدالمطلب للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، فيم الجمال؟ قال: في اللسان<sup>(٢)</sup>.

وهذان الحديثان يدلان على مبلغ تقدير النبي للقول البليغ والبيان السليم.

وإذا كان قول الرسول سهلا لا تكلف فيه ولا إغراب، فإن له من الأحاديث ما يدل على أن ذلك منهجه البلاغي. فقد قال إن الله يبغض البليغ يتخلل كما تتخلل الباقرة الخلى بلسانها<sup>(٣)</sup>. وقال: «إياي

---

(١) البيان والتبيين، ج ١: ص ٢٦

(٢) البيان والتبيين، ج ١: ص ١٢٧

(٣) البيان والتبيين، ج ١: ص ١٨٥، وأورد الترمذي في صحيحه هذا =

والتشادق<sup>(١)</sup>». وقال: «أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون»<sup>(٢)</sup> وقال: «من بدا جفا». وقال الجاحظ بعد هذه الأحاديث: «وعاب الفدادين والمتريدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ورحب القلاصم وهدل الشفاه، وأعلمنا أن ذلك في أهل الوبر أكثر وفي أهل المدر أقل. فاذا عاب المدرى بأكثر مما عاب به الوبرى، فما ظنك بالمولد القروى، والمتكلف البلدى!

== الحديث بالنص الآتى: إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة (ج ٢: ١٣٩). وجاء في السراج المنير شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٣٩٧ ما يأتى: «إن الله يبغض البليغ من الرجال» أى المظهر التفصح الذى يتخلل بلسانه تخال الباقرة بلسانها. قال العلقمى قال فى النهاية أى يتشدد فى الكلام بلسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلاً بلسانها لفاها. وخص البقرة لأن جميع البهائم تتخذ النبات بلسانها وهى تجمع بلسانها. أما من بلاغته خلقه فغير مبغوض.

العاص. قال الترمذى حديث غريب «حم» أحمد فى مسنده. د «أبو داود. ت» (١)، (٢) جاء فى الترمذى ج ١ ص ٣٦٣ الحديث الآتى: (إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفهبون. قالوا: يارسول الله، قد علمنا الثرثارن والمتشدقون فما المتفهبون؟ قال: المتكبرون). وقال عنه: هذا حديث حسن.

(٣) جاء فى السراج المنير، ج ٤ ص ٣٧٩: «(من بدا) بدال مهملة (جفا). فى النهاية: أى من سكن البادية غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس.

فالحصر المتكلف ، والمعنى المتزايد ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده وهو أعذر لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى . فمن أسوأ حالا ، أبصاك الله ممن يكون ألوم من المتشددقين ومن الثرثارين المتفهبين ، وممن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصا وجعل النهي عن مذهبه مفسرا ، وذكر مقتله له وبعضه إياه !»<sup>(١)</sup>

ولما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يسهل ترجمته ، وما لا يخفى منه شيء على من له أدنى معرفة في العربية . ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب ، كوائل بن حجر وأكيدر صاحب دومة الجندل ، فخم اللفظ ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله<sup>(٢)</sup>

ويروى عنه أنه قال : « نضر الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته » ، كما عرف عنه إنكاره على من يتكلفون السجع في الكلام ، وأثر في هذا قوله : « أسجعا كسجع الكهان ! »<sup>(٣)</sup>

وقال لجرير بن عبد الله البجلي : « يا جرير إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ! »<sup>(٤)</sup>

== والجفاء غلظ الطبع اه وقال المناوي : أي من سكن البادية صار فيه جفاء الأعراب ، لتوحشه وانفراده وغلظة طبعه وبعده عن لطف الطباع .

( ١ ) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٩

( ٢ ) الصناعتين ، طبعة ثانية ، ص ١٤٧ و ١٤٨

( ٣ ) الصناعتين ، طبعة ثانية ، ص ٢٥٠

( ٤ ) الكامل للمبرد ، ط مصر ، ص ٤

فكان رسول الله من أشد المحافظين على أن يكون الكلام مطابقاً  
لمقتضى الحال . يوجز في موضعه ، ويطنب في موضعه ، ويؤكد حين ينبغي  
التأكيد ، ويرسل حين يحسن الأرسال ؛ بل لقد باع من محافظته على هذه  
القاعدة أن يتخذ ألفاظ القبيلة الخاصة بها حين يخاطبها ، كصنيعه في مخاطبة  
حمير وغيرها . وقد روى عنه قوله : لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها  
ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»<sup>(١)</sup> .

وقال : نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم» ، وهو القليل الجامع  
للكثير<sup>(٢)</sup> ، وهذا يدل على أن الله خصه بالايجاز وقلة اللفظ مع كثرة المعنى<sup>(٣)</sup>  
ولئن رأيناه له أحاديث موجزة ودعوة إلى الأيجاز . لقد رويت  
كذلك عنه خطبة الوداع ، وفيها من ألوان الأطناب والتكرار للتأكيد كثير  
ويقول الجاحظ ، بعد إيراد فنون من قول الرسول : وأنا أذكر بعد هذا  
فنا من كلامه (صلى الله عليه وسلم) ؛ وهو الكلام الذي قل عدد حروفه  
وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله  
وتبارك وتعالى : قل يا محمد (وما أنا من المتكلمين) . وكيف وقد عاب التشديق  
وجانب أصحاب التعيير ، واستعمل المبسوط في مواضع البسط ، والمقصور في  
موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن المهجين السوقى<sup>(٤)</sup> .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٤١ (٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢٣٨

(٣) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٣٥ و ٧٦ (٤) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ١٤

وعلق على قول رسول الله « لا خلافة » ، فقال : « فالقصد من ذلك  
أن تجتنب السوقى والوحشى ، ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك  
فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصار بلاغ ، وفى التوسط مجانبة  
للوعورة ، والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه » (١)

وإذن فمذهب الرسول البلاغى : أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى  
الحال ، بريئاً من التعقيد والتكلف والاغراب ، مجرداً من التصنع .

---

(١) البيان والتبيين ، ص ١٠٦ .

## الخلفاء الراشدون

وسار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول في البيان ، وكانت لهم خطب وأقوال ماثورة وعناية بالشعر والأدب .  
ومن خطب أبي بكر وأقواله ، التي تشبهه التوقيعات ، يبدو ميله الواضح إلى الإيجاز<sup>(١)</sup> .

وقد فسر الإيجاز وحكمته في قوله ليزيد بن أبي سفيان ، حين بعثه على رأس جيش لنجدة عكرمة بن أبي جهل في فتح الشام : « وإذا وعظتهم — يعني الجند — فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً »  
وكان ينظر في الشعر ويفاضل بين الشعراء . فيروى أنه كان « يقدم النابغة ويقول : « هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بجزاً ، وأبعدهم قعرأ »<sup>(٢)</sup>  
وكان عمر معجباً بزهير ، أنشد له شعراً حتى بلغ قوله :  
فان الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء  
فجعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول : لا يخرج

---

(١) عيون الاخبار ، ط دار الكتب ، ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٤ ،

ج ٣ ص ٥٣

(٢) العمدة لابن رشيقي ، ط مصر الاولى ، ج ١ ص ٦٠

الحق من إحدى ثلاث إما يمين أو محاكمة أو حجة<sup>(١)</sup>.  
وروى أن ابن عباس سأله عن سبب تفضيله زهيراً على الشعراء فقال  
« لأنه كان لا يعاظم في الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح  
أحدًا إلا بما فيه »<sup>(٢)</sup>.

ونسب إليه توجيه الشعراء في القول ، واعتراف الحطيئة له بفقده مذهب  
الشعر . فيروى أنه قال للحطيئة : إياك والهجاء المقذع ! قال : وما المقذع  
يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ،  
وتبني شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم . فقال : أنت والله يا أمير  
المؤمنين أعلم مني بمذاهب الشعر<sup>(٣)</sup>.

فالبلاغة عند عمر : تجنب التعقيد ، وترك الغريب والوحشى ، والبعد  
عن المبالغة والكذب .

وكان على كذلك من أنصار السهولة ، فعرف البلاغة بأنها إيضاح  
الملتبس بأسهل عبارة . وقريب منه قول الحسن ابنه : « البلاغة تقرب  
بعيد الحكمة بأسهل العبارة » ، وقول محمد ابنه : « البلاغة تفسير عسير  
الحكمة بأقرب الألفاظ » .

كما كان يفخر بالفصاحة ويعدها من خصائص قریش . وروى عنه

---

(١) عيون الاخبار ، ج ١ ص ٦٧ (٢) الاغانى ط ساسى ، ج ٩ ص ١٣٩

(٣) العمدة ، ج ٢ ص ١٣٨ (٤) الصناعتين ، ص ٥٠

(٥) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٨٥



قوله: «ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة». فالبليغ عنده، بعد مراعاة السهولة، هو الموجز الذي يضع كثير المعاني في قليل الألفاظ. ووصفها بالإيجاز يتمشى مع الاتجاه القديم، الذي غلب عليها في الجاهلية وصدر الإسلام، وإن كان القرآن لا يرب قد مهد للإطناب وجعل الناس يقدرون أثره في تقرير المعاني وإيضاحها.

### م- معاوية

وكان معاوية يقدر الإيجاز، ويعتبر الإشارة الصائبة البلاغة الحقة. (١) وقد رويت له أحاديث عن البلاغة، مع بعض الأعراب وغيرهم، تدل على عنايته بأمرها وقدره لها. فسأل صحار بن عياش العبدى عن البلاغة عند قومه، فقال له: الإيجاز. وسأله عن الإيجاز فقال: أن تجيب فلا تبطىء، وأن تقول فلا تخطىء. ولكن هذا الجواب لم يعجب معاوية ولم يره قد وفى بشرط الإيجاز، بل رأى صحارا الذي يعرف البلاغة بالإيجاز يطيل، فقال له منبهاً: «أ كذلك تقول؟!»، فتنبه صحار وأدرك خطأه وأجاب مصححاً: «أقلنى يا أمير المؤمنين! لا تبطىء ولا تخطىء». وذلك أن قولك لا تخطىء متضمن بالقول وقولك لا تبطىء متضمن بالجواب، فلا داعى لذكرهما (٢).

(١) البيان، ج ١ ص ١٩٩ (٢) البيان، ج ١ ص ٨١

وسأل معاوية عن الخصائص البلاغية لبعض القبائل<sup>(١)</sup> ، ومحدث  
إلى الأبيناء وأعجب بقولهم<sup>(٢)</sup> . وهكذا عن معاوية بأمر البلاغة ، بل  
اعتبرها خير عون له في تنفيذ سياسته ؛ فقال لمن فخر بزياد عنده : « اسكت ،  
فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه ، إلا أدركت أكثر منه بلساني »<sup>(٣)</sup> .  
وكان الإيجاز ركن البلاغة الأول عندهم . سأل معاوية عمرو بن  
العاص : من أبلغ الناس ؟ فقال : أقلهم لفظاً ، وأسهلهم معنى ، وأحسنهم  
بديهة<sup>(٤)</sup> . . . وسموا الإكثار عيباً ؛ فيروى أن ربيعة الرأي تكلم يوماً ،  
فأكثر وأعجب بالذي كان منه ، فالتفت إلى أعرابي كان عنده ، فقال :  
يا أعرابي : ما تعدون العي فيكم ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم<sup>(٥)</sup> !  
واستعاذوا بالله من الإسهاب . فقد قيل لعبد الله بن عمر : لو دعوت الله  
إلينا بدعوات ! فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ! فقال رجل : لو زدتنا  
يا أبا عبد الرحمن ! فقال : نعوذ بالله من الإسهاب<sup>(٦)</sup> . وتكلم عمار بن  
ياسر يوماً فأوجز ، فقبل له : لو زدتنا ! فقال : أمرنا رسول الله بإطالة  
الصلاة وقصر الخطبة .

(١) البيان ، ج ١ ص ٩٤ وج ٣ ص ١٢٧

(٢) البيان ، ج ١ ص ٢٠٧ (٣) البيان ، ج ١ ص ١٧٨

(٤) مجاني الادب ، ط بيروت ، ج ٣ ص ١٤١

(٥) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٨٤ (٦) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٨١



انتهى هذا العصر . والكلمات الواردة في هذا الباب لا تعدو البلاغة  
والفصاحة والبيان والايجاز والاطناب والاسهاب والعي والتشديق والتفهييق ،  
وما إليها من الألفاظ بمعانيها اللغوية العامة . ثم أتى عصر آخر كثر فيه  
العلماء والكتّاب والأدباء ، فجاءت كلمات لبعضهم في البلاغة لا تخلو  
كذلك من الإيهام . وسأفرد المعروفين منهم بكلمات في الناحية  
البلاغية .

### واصل بن عطاء

٨٠ - ١٣١

ومن هؤلاء واصل بن عطاء ، رأس المعتزلة وداعية مذهبهم ، متكلم  
خطيب ، معروف بقوة الجدل والتصرف في فنون القول .

ومن مؤلفاته كتابا معانى القرآن والخطب في التوحيد والعدل . ولا  
ندرى أى طريق سلك في تأليفهما ، لكن لا يبعد أن يكون خطابيا  
بلاغياً .

والجاحظ ، وإن لم يورد له أقوالا في البلاغة ، قد أطل الحديث عنه  
في صدر كتابه « البيان والتبيين » ، ونسب إليه العلم بأن الخطابة في حاجة

إلى البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، وبأن من تمام آلة  
البيان سلامة النطق وصحة مخارج الحروف ، فوق المعاني وجزائها .  
ولهذا وللمغته ، أسقط الراء من كلامه ، وذكر أقوالاً تصف حجته  
القوية ، ومنطقه الدقيق ، وموهبته الجدلية ، وتبريزه في الارتجال وإصابة  
المعاني المقصودة (١) .

## عبد الحميد الكاتب

ت ١٣٢

وعبد الحميد بن يحيى ، هو صاحب مذهب السهولة في البلاغة والبيان ،  
وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا (٢) . ويروى عنه قوله : « خير الكلام  
ما كان لفظه فخلاً ومعناه بكرة » . وكان شديد الاعتزاز ببلاغته ، فاستشفع  
أمام المنصور ، حين قرر هذا قتله ، بقوله : « إني فرد الزمان في الكتابة  
والبلاغة » .

وكان مجيد الفارسية ، بل إن أباهلال العسكري يصفه بتطبيق أصول  
الكتابة الفارسية على العربية ، وبنقل بلاغة الأولى إلى الثانية ، فيقول :  
« ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ،

(١) البيان ، ج ١ ص ٣٠ - ٤٤

(٢) الفهرست ، ط. مصر ، ص ١٧ ؛ وابن خلدان ج ١ ص ٤٣٥

ثم انتقل إلى لغة أخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، فحوها إلى اللسان العربي ؟ فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى ، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال<sup>(١)</sup> .

وكان له فن بلاغي متميز ، ضرب به البحتری المثل في قصيدته إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، إذ قال :

وتفننت في البلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

ووصيته للكتاب مشهورة ، وفيها اعتزاز بفن الكتابة وبيان لخطر الكتاب . ومنها قوله : « فنافسوا يامعشر الكتاب في صنوف العلم والأدب وتفقها في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم . . . وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها<sup>(٢)</sup> » .

فهو يرى الثقافة أمراً لا مناص للكاتب منه ، وبخاصة ثقافة الدين والقرآن والعربية . بالقياس إلى الكتاب في الدولة العربية .

وقد وصفه الجاحظ ببلاغة اللسان والقلم ، وعده من المقدمين في طبقة

---

(١) الصناعتين ، ص ٦٦ - ٦٧

(٢) الوزراء والكتاب للجهمشباري ، ط الحلبي ، ص ٨٢

المعلمين الذين يشرفونها (١).

## ابن المقفع

ت ١٤٢

ولابن المقفع أقوال في البلاغة تدل على مذهبه في السهولة ، وتجنب الغريب والوحشى والمبتذل السوقي ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال قال لأحد الكتاب : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فان ذلك هو العى الأكبر » . وقال لآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » . وقيل له : « ما البلاغة ؟ فقال : هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، أى تقريب المعنى من فهمه ، حتى يخال اللفظ في متناوله .

وربط بين الجدل والبلاغة حين قال : « البلاغة كشف ما أغض من الحق ، وتصوير الحق في صورة الباطل » . وأبو هلال يشرح هذا القول ، فيقول : « إن الكاتب كثيرا ما يحتاج إلى الاعتذار عن الخطأ أو رفع منزلة دنى أو خفض مكانة شريف . وليست العبرة باظهار الصحيح ، وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن » .

وفسر البلاغة تفسيرا عده معاصروه طريفاً ، فقال إسحق بن حسان

ابن فوهة : « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط . سئل : ما البلاغة ؟  
قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في  
السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها  
ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ،  
ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ،  
ومنها ما يكون رسائل . فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة  
إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح  
ذات البين ، فالأكثر في غير خطب ، والإطالة في غير إملا . وليكن في  
صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن حير أبيات الشعر البيت الذي  
إذا سمعت صدره عرفت قافيته . »

وكأنه يقول ، كما يشرح الجاحظ : « فرق بين صدر خطبة النكاح وبين  
صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المواهب ، حتى يكون لكل فن  
من ذلك صدر يدل على مجزه ، فانه لا خير في كلام لا يدل على معناه . » وكأنه  
يقول كذلك : ليست البلاغة خطابة وحدها ولا كتابة وحدها ، وإنما هي  
خطابة ورساله ووحى وإشارة ، وكما تكون في الإيجاز تكون في الإطناب ،  
وهي المطابقة لمقتضى الحال ، أو إعطاء كل مقام حقه على حد تعبيره في قوله  
لمن سأله : فان مل المستمع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف : « إذا  
أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت  
من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه

لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك<sup>(١)</sup> . وهو في هذه  
العبارة يضع مبادئ الحكم الأدبي ، ويبين أن العمدة فيه هو العالم الذي  
لا يتأثر بهوى ولا بعداوة وحسد .

وكذلك نقل ابن المقفع البلاغة نقلة واسعة المدى ، ووسع في مدلولها .

عمرو بن عبيد

ت ١٤٤

ثاني اثنين — واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد — أسسا مذهب  
الاعتزال وجدا في نشره . وهو كصاحبه ، متكلم خطيب صاحب جدل  
ومناظرة . وقد أورد الجاحظ فقراً من أقواله تدل على عقل منطقي ، كقوله  
معزيا لأخيه في وفاة ابنه : « ذهب أبوك وهو أصلك ، وذهب ابنك وهو  
فرعك ، فما حال الباقي بعد ذهاب أصله وفرعه ؟ »<sup>(٢)</sup> .

وسئل عن البلاغة ، فقال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ،  
وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك ؟ قال السائل ليس هذا أريد .  
قال عمرو : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون  
من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس هذا أريد . قال

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٩١ و ٩٢

(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٧٢



عمرو : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن الافهام ؟ قال : نعم ! قال :  
إنك إذا أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين ، وتخفيف المؤونة على  
المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة  
في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل  
عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل  
الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب (١) .

وفي هذا القول يبدو عقل ابن عبيد الوعظي وهواه الديني . فالبلاغة  
عنده هي ما يؤدي بالانسان إلى الجنة وينجيه من النار ، وهو يصر على هذا  
المعنى ، رغم مراجعة السائل له من بداية الحديث إلى نهايته ، وإن كان يغير  
بعض الشيء في تصويره . فيقول أولاً : البلاغة هي ما يقرب العبد من ربه  
ويبعده عن شيطانه . ثم يقول : إنها القول الناجم عن كثرة الاستفادة  
والسمع من الغير . ثم يقول : البلاغة هي النجاة من الهذر والاكثار ، ولهذا  
قيل : الأنبياء بكاء . ثم يقول : إن الشرف في الكلام والخير في الصمت ،  
ثم يقول بعد أن لم يجد مناصاً من الحديث في صنعة الكلام : « إنها اللفظ  
الجميل في المعنى الحسن » ، ويشرحها شرحاً دينياً .

## جعفر بن يحيى

ت ١٨٢

وصف تمامة بن أشرس جعفر بن يحيى بجزالة المنطق وحلاوته ، وسهولة الأداء ووضوح العبارة وطلاقة اللسان . وروى عنه قوله وقد سأله ما البيان : « أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة . والذي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل (١) » .

وكان جعفر من أنصار الإيجاز ، بل لقد بالغ فيه حتى عرف بتوقيعاته الممعنة فى الإيجاز . وود لو يكون الكلام كله على غرارها ، فقال : إن استطعم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيعات فافعلوا (٢) . لكنه كان يعرف أن لكل مقام مقالا ، وأن للإيجاز مواضع وللإطناب أخرى ، فقال : « متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيا ، ومتى كانت الكناية فى موضع الاكثار كان الإيجاز تقصيرا (٣) » .

فكان البلاغة عنده : وضوح الدلالة ، والبعد عن التكلف والتعقيد ، والمطابقة لمقتضى الحال .

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٨٥ و ٨٦

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٦ (٣) الصناعتين ص ١٨١

## شبيب بن شيبه

ت نحو ١٧٠ هـ

وشبيب بن شيبه خطيب مجيد، وصفه الجاحظ بملاوة الابتداء  
والرشاقة والسهولة في الأداء، وبلوغه في كل موقف بالاجاز ما لا يبلغه  
الخطباء المصاقع بالاجاز كشار.

ومن آرائه أن جودة الخاتمة خير من جودة الابتداء، بل يرى حظ  
جودة القافية، وإن تكن كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت.

ويقول: «فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الاطالة، فقدم أحكام  
البلوغ في طلب السلامة من الخطل قبل التقدم في أحكام البلوغ في شرف  
التجويد. وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً، فإن قليلاً كافياً خير من كثير  
غير شاف»<sup>(١)</sup>. فهو يرى البلاغة في الاجاز، وأن القليل المفيد خير من  
الكثير، وأن الاضطرار الى الاطالة بلية يتعين فيها الحذر. كما أنه من  
أنصار السهولة وأعداء التكلف، إذ يدعو البليغ إلى العمل للسلامة من  
الخطأ في مقام الاطناب، قبل العمل للتجويد.

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٩ و ٩٠

## سهل بن هرون

ت ١٧٣

وسهل بن هرون صاحب خزانة الحكمة للمأمون ، وكان حكيماً فصيحاً شاعراً . وهو فارسي شديد العصبية على العرب ، عرف بالنقل من الفارسية . ومن مؤلفاته كتاب ديوان الرسائل <sup>(١)</sup> ، ولعله قد نقل فيه قواعد التحرير الفارسية إلى العربية .

وقد تحدث عنه الجاحظ ، ونقل له رسالة تدل - إن لم تكن من عمل الجاحظ نفسه - على أن أسلوب سهل وأسلوب الجاحظ متشابهان في السهولة والإطناب .

وكانت كتبه من أعظم الكتب سيرورة في عصره ، ولهذا كان الجاحظ ينحله بعض مؤلفاته لتيسير . وبهذا أثر الجاحظ في الأدب والكتابة ، وتأثر لا ريب بأسلوب سهل ، وكان لهما أثر كبير في توجيه الأسلوب الأدبي . ووصفه الجاحظ ، فقال : « ومن الخطباء الشعراء ، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والأنباء المدونة ، سهل بن هرون <sup>(٢)</sup> » .

وإذ كان للبلاغة أنصار وأعداء في ذلك العصر ، فسهل من أنصارها إذ

---

(١) الفهرست ، ص ١٧٤

(٢) البيان ، ج ١ ص ٥٥

يقول : « بلاغة الإنسان رفق والعى خرق » (١) .

وهو يرى أن أساس البلاغة حسن التصرف ، فيقول : سياسة البلاغة  
أشد من البلاغة » (٢) .

ومن آرائه : « أن اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في  
واحد ، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر و بلاعة القلم » .  
ومن أقواله القيمة حقاً : « لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو  
وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا ذا لباس نبيل ، وذا حسب شريفا ،  
وكان الآخر قليلا قميئا وباذ الهيئة دميما ، وخامل الذكـر مجهولا ، ثم كان  
كلاهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع  
عنهما الجمع ، وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم وللباذ الهيئة  
على ذى الهيئة ؛ ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب  
منه سبباً للعجب به ، ولـكان الإكثار في شأنه علة الإكثار في مدحه لأن  
النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيأس ومن حسبه أبعد ؛ فاذا هجموا منه  
على مالم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه في  
صدورهم وكبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان

(١) البيان ، ج ٢ ص ٤٧

(٢) البيان ، ج ١ ص ٣٢٢

أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف ، وكلما كان  
أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبداع ... » (١)

وفي هذا القول يبدو عقل سهل المنطفي المنظم وتفكيره الدقيق المتأنى  
الذي لا يقفز ، وإنما يسير في انتظام ويصعد في سلم متداني الدرج . وهو  
شرح دقيق للحكم الأدبي ، يوضح أثر الحال النفسية للسامعين في الحكم على  
الخطيب أو المتحدث . وقد كان ذلك غرساً حميداً في ميدان البلاغة ،  
ولو أن من بعد سهل والجاحظ تعهدوه وأتموه لآتى أطيب الثمرات ، ولنجت  
البلاغة من شر الإمعان في المنطق ، ولجنت خيراً كثيراً من اعتمادها على  
البحوث النفسية .

ومما هو جدير بالذكر أنه قد أفاد من قول ابن المقفع السابق ، كما أفاد  
منه في تقسيمه القول إلى خطابة وحديث وجدل ووصف ، فأجمل بهذا ما  
فصله سابقه (٢) .

### أبو عبيدة

ت ٢٠٨

عاش أبو عبيدة علامة البصرة نحو مائة عام ، من صدر القرن الثاني إلى  
صدر الثالث . وكان تيمياً قرشياً ولاءً ، وأصله أعجمي يهودي . ولهذا لم يكن  
فصيحاً ، وقد انتهى إليه علم الإسلام والجاهلية (٣) . وكان يرى رأى الخوارج ،

---

(١) و (٢) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٧١ (٣) الفهرست ، ص ٨٩

ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه<sup>(١)</sup>. وله كتب تزيد على المائتين ، منها كتاب النقائص بين جرير والفرزدق ، وكتاب مجاز القرآن ، وكتاب تفسير غريب القرآن ، وكتاب معاني القرآن ، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب الأمثال ، وكتاب إعراب القرآن .

ومن آرائه أن التكسب بالشعر أساس التكلف والصنعة ، فيقول :  
« ومن تكسب بالشعر والتمس به صلوات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة في قصائد السماطين والطوال التي لم تنشد يوم الحفل ، لم يجد بدا من صنيع زهير والخطيئة وأشباههما . وإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود »<sup>(٢)</sup> . وقد نقل له الجاحظ كلاما في الفصاحة وعيوب النطق<sup>(٣)</sup> وشعرا في الخطيب البليغ<sup>(٤)</sup> .

### مجاز القرآن

وكتابه مجاز القرآن موضع حديث قديم في تاريخ البلاغة ، ويقول أبو عبيدة إن السبب في تأليفه هو ما كان من استقدام الفضل بن الربيع له ، وسؤاله في مجلسه عن وقوع الایعاد بما لم يعرف مثله في قول الله تعالى :  
( طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ) . فقال أبو عبيدة : « فقلت إنما كلم الله

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٢٤ (٢) البيان ، ج ١ ص ٢٦

(٣) البيان ، ج ١ ص ٧ ؛ (٤) البيان ، ج ١ ص ١٥٥

تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس :  
أتقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال  
وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به .  
فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، واعتقدت من ذلك اليوم أن  
أضع كتابا في القرآن في هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت  
إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز<sup>(١)</sup> .  
وهكذا ترى أن سبب تأليفه يرجع الى مسألة بلاغية تتصل بالتشبيه  
وكون المشبه به معلوما أو مجهولا ، وأنه أورد فيه أشباه هذا ( وما يحتاج  
إليه من علمه ) .

ويقول التوزي : « بلغ أبا عبيدة أن الأصمعي يعيب عليه تأليف  
كتاب المجاز في القرآن ، وأنه قال يفسر ذلك برأيه . قال فسأل عن مجلس  
الأصمعي في أي يوم هو ، فركب حمارة في ذلك وصر بحلقه الأصمعي ،  
فنزل عن حمارة وسلم عليه وجلس عنده وحادثه ، ثم قال : يا أبا سعيد ،  
ما تقول في الخبز ؟ قال : هو الذي تخبزه وتأكله ! فقال أبو عبيدة :  
فسرت كتاب الله برأيك . قال الله تعالى « إني أراي أجمل فوق رأسي  
خبزاً » ! فقال له الأصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسره برأبي .  
فقال له أبو عبيدة : وهذا الذي تعيبه علينا كاه شيء بان لنا فقلناه ، ولم



نفسره برأينا ! ثم قام فركب حماره وانصرف (١).

ومن هذه القصة يبدو أن أبا عبيدة قد أحدث جديداً بتأليف هذا الكتاب ، وأنه كان مشاراً للاعتراض عليه من علماء عصره الذين لا يدينون بمذهب الرأي ، وأن أبا عبيدة قد اعترى بآرائه ، ورأها ظاهرة ظهور معنى الخبز . وقد تدل كذلك على أن ما أثاره الأصمعي ، من الاعتراض على الكتاب وما جاء فيه ، كان له من الأثر ما اقتضى أن يركب أبو عبيدة ، وأن يذهب ليحتاج نظيره الأصمعي فيه ويدفعه على ملأ من الناس .

وقد عد ابن النديم من مؤلفاته كتاب المجاز وكتاب تفسير غريب القرآن . وأغلب الظن أن الكتاب الثاني هو المخطوط بدار الكتب المصرية ، إذ كتب بظاهر النسخة «تفسير غريب القرآن» ، وإن كانت كلمة المجاز قد دارت في الكتاب كما سيأتي .

ويرى الأستاذ أمين الخولي رأي ابن تيمية في أن المجاز عند أبي عبيدة لا يعنى مقابل الحقيقة ، وإنما يعنى ما يعبر به عن الآية ، فهو يعنى التفسير .

والحق أن أبا عبيدة استعمل كلمة المجاز بمعنى التأويل أو التفسير ، إذ يفتتح الكتاب بقوله : « القرآن اسم كتاب الله خاصة ، ولا يسمى به شيء من سائر الكتب غيره . وإنما يسمى قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها .

وتفسير ذلك في آية من القرآن. قال الله جل ثناؤه : **إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنَهُ**، مجازه تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال : **« فَاذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »** مجازه فاذا ألفنا منه شيئاً فضمه إليك . . . . . وقال عمرو بن كلثوم :

ذراعى حرة أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أى لم تضم جنينا فى رحمها قط . ويقال للتي لم تحمل قط : ما قرأت جنيناً قط . وفى آية أخرى **« فَاذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ »** مجازه إذا تلوت بعضه فى أثر بعض حتى يجتمع وينضم بعضه الى بعض . ومعناه يصير إلى معنى التأليف .  
ونكن يلاحظ أنه يبدأ كل عبارة بقوله : وفى مجاز كذا قال الله ، ويضيف الى كلمة المجاز أمراً فيه صرف اللفظ عن استعماله العام إلى غيره . فيقول مثلاً : **« وفى مجاز ما جاء من بعض خبر الحيوان والموات على بعض خبر الناس قال : « إِنْى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتَهُمْ لى سَاجِدِينَ » . وقال : « أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وقال للأصنام : « لَقَدْ عَلِمْتِ مَا هُوَ لَاءِ يَنْطِقُونَ » . فهو هنا يشرح خروج ضمير العاقل عن وضعه الأصلي واستعماله لغير العاقل . ويقول : « وفى مجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ، ثم ترك وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فى الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ » أى بكم ، فيذكر قاعدة بلاغية معروفة، وهى الالتفات من الغائب إلى الحاضر والعكس . ويعرض كذلك للاطناب بزيادة الحروف للتأكيده فيقول : « وفى مجاز ما يزداد فى الكلم من الحروف الزوائد ، قال الله تعالى : « إِنْ اللّٰهُ لَا يَسْتَحْيى أَنْ**

يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا» ، وقال : « فَمَنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ عَاجِزِينَ » ،  
وقال : « وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْدِنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ » ،  
وقال « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ » ، وقال « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » . فهوهنا  
يشير إلى زيادة « ما » و « من » والباء و « إذ » و « لا » . وقد وردت  
في هذا الموضع كلمة التوكيد ، مع بياض قبلها مكان كلام محذوف ، مما يدل  
على ذكره لمعنى الزيادة ، وتكلم عن مجاز التكرار للتأكيد ، والاجمال  
استغناء عن التفصيل ، والتقديم والتأخير . واستعمل الكناية استعمال  
اللغويين والنحاة بمعنى الضمير ، فقال « وفي مجاز ما يحول خبره إلى شيء  
في سببه ويترك خبره ، قال : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » أي فظلوا هم  
خاضعين . حول الخبر إلى الكناية التي في آخر الأعناق » .

فأبو عبيدة يقول : « وفي مجاز كذا » ، ثم يورد استعمالات متجاوزا فيها .  
وهو حقا قد سار على ترتيب السور ، فبدأ بالفاتحة فالبقرة فآل عمران وهكذا ،  
ولكنه لم يستقص السورة كلها ، وإنما أورد الاستعمالات الغريبة فيها ،  
أي أورد غريب القرآن ، أو مجاز القرآن بمعنى الأشياء الغريبة التي خرجت  
عن مألوف الاستعمال .

وإذا ضمنا إلى هذا أن أبو عبيدة ألف كتابه مجاز القرآن بعد  
مسألة التشبيه التي رويناها ، وأن عالما كالأصمعي اعتبره بدعا — لم نبعد إذا  
قلنا إن المجاز عند أبي عبيدة لوحظ فيه مطلق النقل من الوضع الأصلي  
أو المعروف ، وأن هذا المعنى خصص من بعد حتى صار المقابل للحقيقة

عند الجاحظ كما سيأتي . ولعل كتاب المجاز — إذا اعتبرنا السابق كتاب تفسير غريب القرآن — كان يعطى فكرة أوضح .

### النقائض

ولأبي عبيدة كتاب آخر يدل على سعة اطلاعه ، وعظيم إلمامه بتاريخ العرب وأيامهم ، وثقافته اللغوية الشاملة ؛ ذلك هو كتاب النقائض بين جرير والفرزدق . وهو كتاب لغوي تاريخي ، ولكن الباحث يجد فيه ما يتصل بالبلاغة .

استعمل مادة الاستعارة حين قال تعليقاً على قول الفرزدق لجرير :

لا قوم أكرم من تميمٍ اذ غدت عوذُ النساء يُسقنَ كالأجال (١)

قوله عوذ النساء هن اللاتي معهن أولادهن ، والأصل في عوذ الابل التي معها أولادها فنقله العرب الى النساء . وهذا من المستعار ، وقد تفعل العرب ذلك كثيراً (٢) .  
وأتى المثل عنده بمعنى المجاز أو الاستعارة كقوله :

فلم تدري يا هلب استها كيف نتقى شمساً أبت الالتاحاً عقيمها

والشمس المنوع من الخيل ، وهو مثل . يقول أبت عقيمها إلا أن تلقح .  
وإذا لقحت الحرب ، كان أشد لأمرها وأعظم (٣) . وفي قوله بعد قول جرير :

إني إذا بسط الرماة لغوهم عند الحفاظ غلوت كل مغال

(وقوله «غلوت» هو من غالني فغلوته . يقول نظرنا أينما أبعد غلوة سهم ،

وإنما هذا مثل للتفاخر وذكر الأيام والنعم والأيادي) (٣) .

(٢) ج ١ ص ١٢١

(١) ج ١ ص ٢٧٥

(٣) ج ١ ص ٢٩٥

وقد يسميه كذلك ضرب المثل .  
على أن المثل عنده يأتي كذلك بمعنى القول السائر . ولكن النزعة  
اللغوية قد تغلب عليه ، فيخرج الاستعارة تخریجاً لغوياً ، ويعبر عنها  
بالتسمية<sup>(١)</sup> . وتظهر هذه النزعة كذلك في كتابه تفسير غريب القرآن ؛  
إذ يفسر ما سمي بعد بالمجاز العقلي تفسيراً لغوياً .

ووردت كلمة التشبيه في مواضع عدة ، كقوله تعليقاً على بيت جرير :  
تُجْرِي السواكَ على أغرٍ كأنه بَرْدٌ تَحْدَرُ من مُتُونِ غمام  
« أغر : ثغر ، لبياضه شبه ثغرها ببرد تحدر من غمامة » .

وإذا فأبو عبيدة قد عرف التشبيه والمثل والاستعارة . ولعل النصوص  
الماضية كافية لفهم معانيها عنده .

\*\*\*

وأبو عبيدة أحد ثلاثة من علماء البصرة : أبو زيد ، والأصمعي ، وأبو عبيدة  
عرفوا بفقهِ اللغة وتمام الإلمام بشعر العرب وأيامهم وأخبارهم . وقد نسب  
الأبي زيد فوق كتبه اللغوية والأخبارية كتاب المنطق<sup>(٢)</sup> . ونسب للأصمعي  
كتاب الأمثال وكتاب معاني القرآن<sup>(٣)</sup> . وأورد له الجاحظ كلاماً في موانع

(١) ج ١ ص ٢٧٧

(٢) الفهرست ص ٧١

(٣) الفهرست ص ٨٢

الفصاحة وعيوب اللسان<sup>(١)</sup> ، وقوله « البليغ من طبق المفصل وأغناك عن  
المفسر »<sup>(٢)</sup> . أى إن البليغ هو من يضع اللفظ على قدر المعنى ، ويبين عما  
عنده فى وضوح وجلاء . ويظهر أنه كان من أعداء الصنعة والتجويد ،  
فقد عاب الخطيئة وسماه عبداً لشعره<sup>(٣)</sup> . وكان أبو هلال فى كتاب الصناعتين  
يحتج بقوله فى مواضع عدة ، كقوله فى صدر كلامه عن التجنيس : « أن  
يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتهما فى تأليف حروفها على  
حسب ما ألف الأصمعى كتاب الأجناس »<sup>(٤)</sup> .

### بشر بن المعتمر

ت ٢١٠

وبشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد ، ومن أصحاب الرأى ، وقد  
عرف بالشعر التعليمى<sup>(٥)</sup> . وكانت له أقوال فى البلاغة يفخر بها على غيره .  
فيروى أنه مر بابراهيم بن جبلة وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فاستمع لكلامه ،  
ثم أجه إلى الفتيان وقال : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا » .  
ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره تتلخص فيما يأتى :

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٤٦ (٢) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٨٦ ،

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٥٠ (٤) الصناعتين ، ص ٣٠٨

(٥) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٤٤

١ — تخير للإنتاج الأدبي ساعة النشاط وفراغ البال وإجابة النفس ، فقليل هذه الساعة أكرم من جهد يوم طويل . وإن قصدت إلى الكتابة ولم تواتك القريحة ، فلا تتكلف ولا تتركه الألفاظ على مواضعها ، بل دع الكتابة بعض الوقت ، ثم عاودها فستواتيك إن كنت موهوباً .

٢ — كن رشيق اللفظ قريب المعنى ، وتجنب التوعر ، فهو يسلم إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك المعاني ويشين الألفاظ .

٣ — تحر مطابقة الكلام للحال . وافصل بين خطاب العامة وخطاب الخاصة ، واعلم أن لا فرق بين معانيهما شرفاً ووضعة . والبليغ التام هو من يفهم العامة معاني الخاصة (١) .

والقسم الأول من هذا الكلام مسائل عامة لا يتصل بالبلاغة منها إلا مجانبة التكلف . والقسم الآخران فيهما من المسائل البلاغية اجتناب التعقيد ومراعاة مقتضى الحال ، فلهما لهذا كرفي تاريخ البلاغة . ولكني لا أستطيع أن أذهب مذهب الأستاذ أحمد أمين ، إذ قال تعقيباً على هذه الصحيفة : « وهذه كما ترى أسس البلاغة ، وقد كتبها قبل أن يؤلف الجاحظ كتابه البيان والتبيين ، لأن الجاحظ نقلها عنه ، ولأن بشراً نضج قبل نضوج الجاحظ ومات قبله بنحو خمس وأربعين سنة ،

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٠٤ و ١٠٥

فان بشراً مات نحو سنة ٢١٠ ، ومات الجاحظ نحو سنة ٢٥٥ ، ولا نعلم  
قبل بشر من تعرض لوضع هذه الأسس في اللغة العربية ، فلو أسميناه  
مؤسس علم البلاغة لم نبعد « (١) .

فلكى نحكم بجدّة قول بشر في تاريخ البلاغة ، يجب أن نعلم أولاً  
قول إبراهيم بن جبلة الذي اعترض عليه بشر ، فر بما كان أدخل في البحث  
البلاغي منه ، ويجب أن نعلم كذلك ما كان يقوله غير إبراهيم من المعلمين  
لتلاميذهم ، وتوجيهات عبد الحميد الكاتب ، وسهل بن هرون وكتايبه :  
معاني القرآن والخطب في التوحيد والعدل ، وغيرهما من الكتب التي  
لم تصلنا . فتاريخ البلاغة مليء بالمجهولات ، والقول بأن فلانا مؤسس  
البلاغة لا يقوى أى باحث على تحمّل عبئه .

على أنى لست بحاجة إلى الإحالة على مجهول ، فقد رأينا الدعوة إلى  
مجانبة التكلف والتعقيد ، وإلى مراعاة مقتضى الحال في كلام النبي  
والصحابه والتابعين ، ورأينا أن ابن المقفع قد قال ما هو أدخل في البحث  
البلاغي من هذا ، وقيل عنه إن أحداً لم يفسر البلاغة تفسيره إياها ، وإنه  
قد وجه الكتابة العربية توجيهاً جديداً ، وابن المقفع توفي سنة ١٤٢ هـ .  
وهذا أبو عبيدة قد عاصر بشراً وعاش نحو مائة سنة وتوفي قبله بعامين ،  
وألف في مجاز القرآن وتحدث في التشبيه والاستعارة . و بشر توفي والجاحظ

---

(١) ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ١٤٢



في الستين من عمره ، فالقول بأن الجاحظ لم ينضج وقت هذا القول ليس له ما يثبتته ، وبخاصة أن هذا القول جاء في كتاب البيان والتبيين وهو من آخر مؤلفات الجاحظ .

## كلثوم العتابي

ت ٢٢٠

وكلثوم بن عمرو العتابي من أولاد عمرو بن كلثوم الشاعر ، وأصله شامي من قنسرين . صحب البرامكة ، وكان شاعراً كاتباً حسن الترسل (١) . وهو في الشعراء العباسيين كالتابغة في الجاهليين ، ثم هو أديب مصنف ، ومن كتبه « كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب الألفاظ » (٢) . ووصفه الجاحظ فقال : « ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن ، كلثوم بن عمرو العتابي ، وكنيته أبو عمرو . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كمنصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما . وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة (٣) »

(١) الفهرست ، ص ١٧٥

(٢) معجم الأدباء ، ص ٦٠ - ٢١٢ - ٣١٢ (٣) البيان ، ج ١ ص ٥٩

وكان البديع ، كما سيأتي ، اسماً عاماً في ذلك العصر تندرج تحته ألوان  
البيان من تشبيه واستعارة وغيرها . ومن هذا النص يظهر أنه كان صاحب  
مذهب بلاغي تأثر فيه ببشار ، ولكنه انفرد بخصوصيات تكلف بعض  
الشعراء تقليدها وسار على نمطها من بعده .

وسئل العتابي عن البلاغة ، فقال : « كل من أفهمك حاجتك من غير  
إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ . فاذا أردت اللسان الذي يروق  
كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل بصورة الحق » .  
والشطر الأول من كلامه يدل على أن البليغ عنده هو من يصور المعنى  
تصويراً كاملاً واضحاً ، فلا يحتاج إلى استعانة بإعادة أو إشارة أو نحوهما ،  
ولا يعتريه ضعف في الأداء . أما الشطر الثاني ففيه دلالة على عقل العتابي  
صاحب المنطق الذي يريد إظهار ما غمض من الحق ، وصاحب الجدل الذي  
يريد تصوير الباطل حقاً .

وعلق الجاحظ عليه ، فقال : إنه لم يقصد بقوله إن كل من أفهمك  
حاجتك فهو بليغ ، أن الكلام الملحون والمعدول عن جهته والركيك بليغ ،  
وإنما عنى العتابي « إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء <sup>(١)</sup> » .

ويربط العتابي بين الألفاظ والمعاني ربطاً وثيقاً ، فيقول إن نظمها يحتاج  
إلى مهارة وموهبة ، وإن تحويلها عن مواضعها يفسدها ويحيلها ، وإن معرفة

ما ينبغي تقديمه وما ينبغي تأخيره أمر يتصل بالخبرة . وقد أعجب أبو هلال  
العسكري بهذا القول وامتدحه (١) .

فكان يرى أن اختيار الألفاظ ووضعها في مواضعها أمر صعب يحتاج  
إلى كثير من المهارة والحنق . ويقول : « ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون  
العلم وجرينا فيه من صنوف الآداب شيئاً أصعب مرأماً ، ولا أوعر مسلكاً  
ولا أدل على فضل الرجال ورجاحتهم وأصالة الرأي وحسن التمييز منه ،  
واختباره من الصناعة التي خطبتها ، والمعنى الذي طلبته . وليس شيء أصعب  
من اختيار الألفاظ ، وقصدك بها إلى موضعها ، لأن اللفظة تكون أخت  
اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن ، ولا تحسن في مكان غيرها (٢) » .

وبإضافة هذا النص إلى ما سبق ، يتبين مقدار عنايته بالألفاظ واختيارها ،  
وأنه في هذا يتحدث عن تجاربه كاتبا يرى دقة الملاءمة بين اللفظ والمعنى  
ووجوب العناية بهما معاً .

ويدل هذا النص كذلك على أنه من المجودين الذين يراجعون  
كثيراً ما يكتبون . ويؤيده ، ويقرر رأيه في العناية باللفظ والمعنى معاً ، ما روي  
من أن صديقاً له طلب إليه كتابة رسالة في أمر ، فكان العتابي يطلب إليه  
التأجيل مرة بعد أخرى . فقال له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة ، فقال :  
العتابي : لما تناولت القلم تداعت على المعاني من كل جهة ، فأجبت أن أترك

---

(١) الصناعتين ، ص ١٥٤ (٢) الرسالة العذراء ، ط دار الكتب ، ص ٣١

كل معنى يرجع إلى موضعه ، ثم أجتني لك أحسنها (١) .  
ويروى طيفور أنه كان يحسن الفارسية ويكتب كتبها ، فسئل عن  
ذلك فقال : « وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة ؟! اللغة لنا  
والمعاني لهم (٢) » .

فالتبى إذاً قد عرف الفارسية وثقف بمعارفها ، وعلم أن فيها من  
المعاني والبلاغة ما يزيد في ثروة العربية ويغنيها ، فأفاد منها .

\*\*\*

هذا هو التفكير البلاغي قبل الجاحظ ولعصره عند الذين نقل عنهم  
في كتبه . ولا جرم أن الباحث يعجز عن تمام الإلمام بهذا التفكير ، إذ لم  
يصل إلينا من مؤلفات ذلك العصر شيء مذكور ، وكتب الفهارس تذخر  
بأسماء مؤلفات في القرنين الأول والثاني وبداية الثالث لا نعرف عنها  
شيئاً ، وإن كانت أسماؤها تشعر بصلتها بالبلاغة .

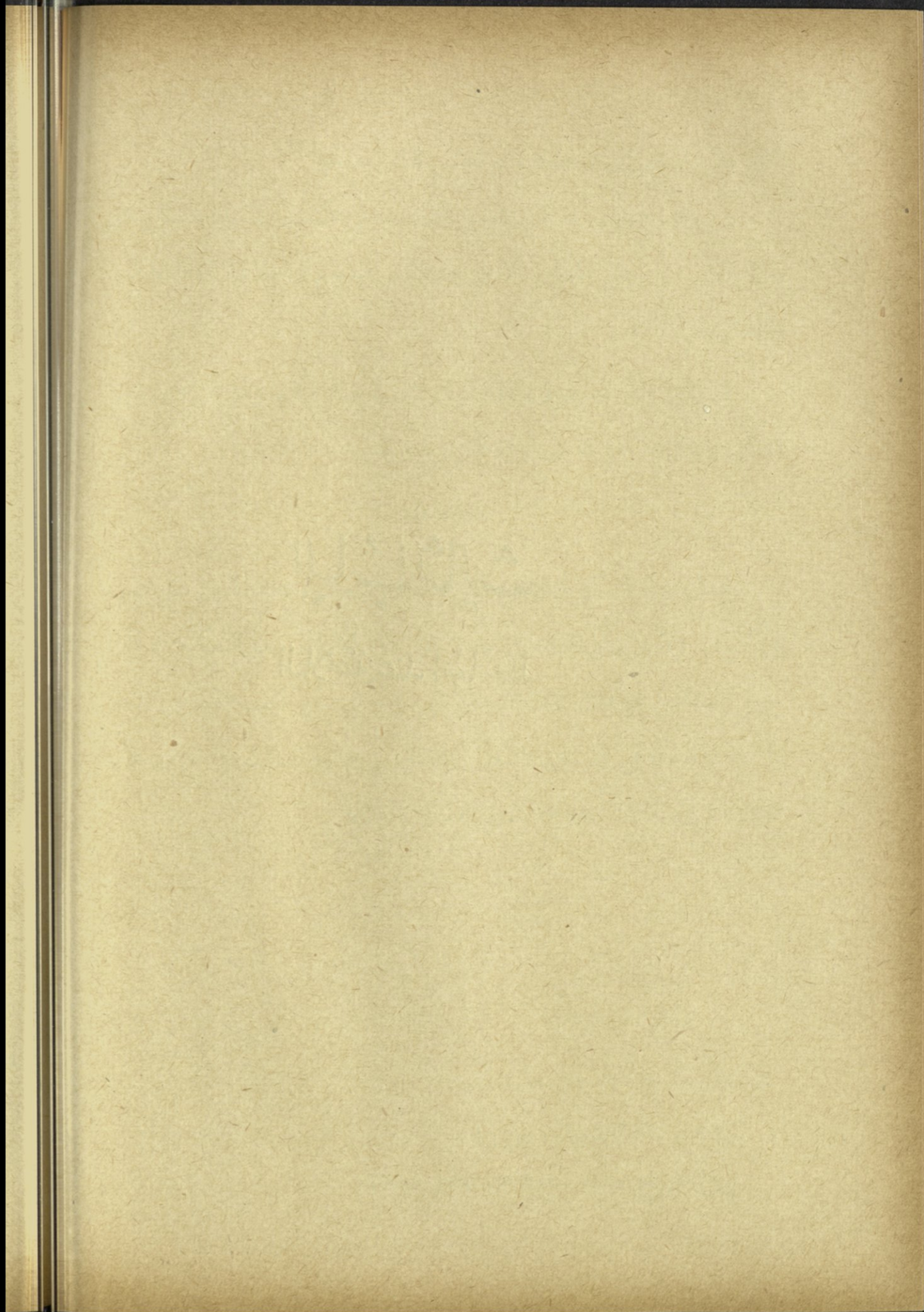
---

(١) الرسالة العذراء ، ص ٣٦

(٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨

# الباب الثالث

البلاعة عند الجاحظ



## الفصل الأول

البلاغة : معناها ، تعريفها ، مسائلها

### ١ - معنى البلاغة

إذا تأملنا النصوص التي وردت فيها كلمة البلاغة أو مشتقاتها ، في كتب الجاحظ التي بين أيدينا ، وجدنا لها معاني نوردتها فيما يأتي :

#### ١ - الخطابة :

أتت البلاغة في كثير من النصوص ، ملحوظا فيها معنى الخطابة أو الحديث ، كما أتت الخطابة بمعنى البلاغة . فترى الجاحظ يتحدث عن المعاني ، وكيف تجمل إذا أعارها البليغ مخرجا سهلا ونظما جميلا<sup>(١)</sup> .  
وحيث يورد أسماء الخطباء وصفاتهم وأنباءهم ، يذكر في أثناء إيرادهم سهل بن هرون كان شديد الاطناب في وصف المأمون بالبلاغة ، ومقومات البراعة فيها : من الجهارة والحلاوة والفضامة وجودة اللهجة والطلاوة . ثم يتبع هذا بذكر أسماء الخطباء من بني هاشم ، وبلغاء رجال القبائل ، وخطباء الجاهليين والاسلاميين والبدويين والحضرين ؛ فيتحدث عن الاشارة

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٧٦

والحركة في الخطبة<sup>(١)</sup>، كما يذكر أن أهل البلاغة لا مناص لهم من الاستعانة  
بالإشارة باليد والرأس<sup>(٢)</sup>.

فواضح من هذا كله أن الجاحظ حين يورد هذه الملاحظات الخطابية  
من الإشارة والحركة والصوت واللهجة، وحين يأتي بكلمة البلاغة مصحوبة  
بهذه الملاحظات، يلاحظ فيها معنى الخطابة. وتراه كثيراً ما يضع لفظي  
البلاغة والخطابة في جملة واحدة مترادفين، كأن يتحدث عن موقف  
الجمهور في المفاضلة بين خطيبين، فيقول إنه « إذا كان الخليفة بليغاً  
والسيد خطيباً » كان الناقد لقولهما في الأكثر أحدهما رجلين : رجل  
يعطى كلامهما من التعظيم على قدر ما لهما في نفسه من الحب، ورجل  
يتهم نفسه فيسرف في اتهام من يعظمه خشية أن يكون مخدوعاً عنه. ولكن  
الناقد العدل هو القوي الذي لا يتأثر بهوى نفسه ولا برأى غيره، فيضع  
كلمة البليغ مرادفة لكلمة الخطيب في معرض الحديث عن حكم الجمهور  
بين خطيبين<sup>(٣)</sup>.

وكقوله : « وما تكلمت فيه الخطباء ونطقت به البلغاء أكثر من أن  
يبلغ آخرها ويدرك أولها »، فيضع النطق مرادفاً للتكلم والبلغاء مرادفاً  
للخطباء<sup>(٤)</sup>، والأمثلة على هذا عديدة<sup>(٥)</sup>.

(١) البيان والتبيين، ج ١ ص ٧٧ (٢) كتاب الحيوان، ج ١ ص ٣  
(٣) البيان والتبيين، ج ١ ص ٧٦ (٤) هامش الكامل، ج ٢ ص ١٢٣  
(٥) البيان، ج ١ ص ٢٠٢-٢٣٠



وأسلوب الجاحظ بما فيه من إطناب وبسط يؤدي إلى استعمال كثير من المترادفات ، إما بإيرادها مفصلة متناظرة وإما بالعطف . ولهذا يعطف الخطابة على البلاغة والبلاغة على الخطابة عطف تفسيري<sup>(١)</sup> ، ويعقد بابا بعنوان : «باب أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء وذكري قبائلهم وأنسابهم»<sup>(٢)</sup> . وفي هذا الباب يورد أسماء الخطباء من القبائل المختلفة والمذاهب المتنوعة ، مصدرا الأعلام بقوله : ومن خطباء كذا فلان وفلان ... كما يورد ما يؤدي إليه الاستطراد من أنباء تتصل بالقبائل والنحل وخطبائها . وهذا يبين أن لفظ البلقاء أتى مرادفاً للفظ الخطباء في هذا الباب الذي يقوم على ذكر الخطابة .

ويذكر احتجاج المعترض على أصحاب البلاغة والخطابة باشعار تمدح الصمت وتهجن الكلام ، ورد «صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبیین» عليه بأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عاب الخطيب المتخلل بلسانه المتكلف للقول ، (الذي يصنع بفكيه وشذقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر) .

كما تجد عند الجاحظ نصوصاً تجمع بين البلاغة والخطابة جمعاً فيه تعقيب بأحد اللفظين على الآخر ، كأن يقول : «قال أشبم بن شفيق بن ثور لعبيد الله بن ظبيان : ما أنت قائل لربك ، وقد حملت رأس مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان ؟ قال : اسكت ! فأنت يوم القيامة أخطب

(١) البيان ، ج ١ ص ٨٢ و ١٤٧ (٢) البيان ، ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٣٠

من صعصعة بن صوحان إذا تكلمت الخوارج . . . » ثم علق الجاحظ على هذا بقوله : « فما ظنك ببلاغة رجل - يعني صعصعة - عبید الله ابن زياد يضرب به المثل ! »<sup>(١)</sup> . فهو هنا قد وضع البلاغة موضع الخطابة ، إذ العبارة أخطب من صعصعة ، لا أبلغ من صعصعة .

وكقوله : إن معاوية سأل صحرار بن عياش العبدى : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ فقال أحد الحاضرين : هم بالبسر ، والرطب أبصر منهم بالخطب ! فالسائل يسأل عن البلاغة ، والمجيب ينفي عنهم الخطابة . . . ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً : أن الكلمة أتت مقابلة للعى في قول الشاعر :

جمعت صنوف العى من كل وجهة

وكننت حريا بالبلاغة من كئيب

ويتبين من البيت الذي بعد هذا : أن المقصود بمقابل العى ( أى البلاغة ) هو الخطابة ، إذ يقول :

أبوك معممٌ في الكلام ومخولٌ وخالك وثاب الجرائم في الخطب

فيتحدث عن الكلام والتمكن منه والخطب والبراعة فيها<sup>(٢)</sup> .

ونحو هذا قوله عن الإنسان : إنه سمي العالم الصغير ، إذ كان

(٢) البيان ، ج ١ ص ٤٢

(١) البيان ، ج ١ ص ٢١٣

فيه جميع طبائع العالم الكبير ، ثم يقول : ألا ترى أن في الإنسان طبائع الغضب ، والرضا ، والشك ، واليقين ، والعي ، والبلاغة ، وغيرها (١) .

وقوله : « بل ربما لم يرض باللفظ السليم حتى يسقمه ، ليقع العجز موقع القوة ، ويعرض العي في محل البلاغة » (٢) .

وقوله : « ويكون في وسعه وصل لأن يحط نفسه في طبقة الذل ، وهو عزيز ؛ ومحل العي ، وهو بليغ » (٣) . فهذا الاستعمال يؤيد الرأي في المعنى السابق . ويتصل بهذا إضافة كلمة البلاغة إلى المنطق واللسان ، ووصفها ، كقوله : « وذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حال قریش في بلاغة المنطق . . . وذكر العرب وما فيها . . . من بلاغة الألسنة » (٤) .

وقوله ، بصدد الحديث عن الخطابة والشعر ومن يجمع بينهما :

« وكان سهل بن هرون يقول : اللسان البليغ ، والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد (٥) » ، فالبلاغة هنا قد جعلت مقابلة للشعر ، مقصودا بها الخطاب ، أو الكلام المنشور .

وقوله ، عند التحدث عن المعاني التي تجمل روايتها : « المعاني التي

---

(١) الحيوان ، ج ١ ص ١٠٠ (٢) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٠٥

(٣) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٠٦ (٤) البيان ، ج ١ ص ٢٦

(٥) البيان ، ج ١ ص ١٧١

إذا صارت في الصدور . . . فتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام  
على مدافن الألفاظ (١) ، فجعل البلاغة متصلة باللسان ، مغايرة  
للكتابة .

ووصف بهذا المنطق في قوله : « الأعجم من أجناس الحيوان يبلغ  
في تدبير معيشتة . . . . . ما لا يبلغه ذو الروية التامة والمنطق البليغ (٢) » .  
وأضيف إليها في قوله : « ووجه العرب قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة  
المنطق (٣) » .

٢ — على أنها تتصل بالشعر كذلك كما يبدو هذا في قوله :  
« وسند كر بعض ما جاء في تفضيل الشعر ، والخوف منه ، ومن  
اللسان البليغ (٤) » ، ثم في قصره القول على الهجاء المقذع ،  
وبيان كيف أسقط قبائل ، ورفع غيرها ، ولم يعرض للخطابة  
بذکر .

٣ — ولوحظ في الخطابة معنى النثر في قوله : « ولكل قوم ألفاظ  
حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام  
منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون (٥) » ، فالبليغ هنا

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٢٥

(٢) الحيوان ، ج ٧ ص ٢٢ (٣) هامش الكامل ، ج ١ ص ٢٦٥

(٤) البيان ، ج ٣ ص ٢٣١ (٥) الحيوان ، ج ٣ ص ١٦٣

هو صاحب كلام المنثور ، والشاعر هو صاحب الكلام الموزون ،  
والبلاغة موضوعها النثر .

ونحو هذا قوله : « وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة ،  
مع ما فيها من الشعراء ، والعظماء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحكماء »<sup>(١)</sup> .  
فيظهر أن البلغاء هنا مغايرون للشعراء ، بل للخطباء ، كما يدل اختلاف  
المعطوفات .

وقوله : « وإنه — الرسول — تحدى البلغاء ، والشعراء ، والخطباء  
بنظمه » . ففي هذه الأمثلة نرى أن البلغاء بمعنى الناثرين ، وأنهم يوضعون  
مقابلين للشعراء .

٤ — واتصلت كذلك بالكتابة وبالقلم ، كقوله في صدر رسالته  
في مدح التجارة ، وذم عمل السلطان : « أستحي من الكتابة وأستنكف  
بأن أنسب إليها من البلاغة »<sup>(٢)</sup> ، فجعل البلاغة من الأوصاف التي  
تتصل بالكتابة . وقول بشر بن المعتمر : « فإن أمكنك أن تبلغ من  
بيان لسانك وبلاغة قلمك ... »<sup>(٣)</sup> . فالبلاغة هنا : قد أسندت إلى القلم .  
وقول سهل بن هرون : « اللسان البليغ والشعر الجيد : لا يكادان  
يجتمعان في واحد . وأعسر من ذلك . أن تجتمع بلاغة الشعر ، و بلاغة  
القلم »<sup>(٤)</sup> .

(١) هامش الكامل ، ج ٢ ص ١٠٢ (٢) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٤٧

(٣) البيان ، ج ١ ص ١٠٥ (٤) البيان ، ج ١ ص ١٧١

وهكذا نرى للشعر بلاغة ، وللقلم بلاغة ، كما رأينا للسان بلاغة ،  
وللمنطق بلاغة .

وأنت البلاغة اسما شاملا لفنون القول المختلفة في قوله : «ونحن —  
أبقاك الله — إذا أدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ،  
ومن المنثور والمسجوع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ... »  
فجعل للبلاغة أصنافا من النثر ، والشعر ، والسجع ، والمنثور ،  
والمزدوج ، والمطلق .

وقوله ، في معرض الحديث عن المسلمين : ( فكم تظن أنا وجدنا  
منهم من الرواة والقضاة ... ومن كبار الكتاب ، والشعراء ، والوزراء  
والأدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أصناف  
البلاغة <sup>(١)</sup> . فالبلاغة أنواع شعر وكتابة ورسالة وخطابة وغيرها .

وقد تأثر الجاحظ بابن المقفع ، وسهل بن هرون في تقسيم الكلام  
كما مر . ويقول لأحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيعة والتدوير : إن  
خطبائك قد جمعوا البلاغة . فهي إذا شيء ذو أجزاء تجمع ويحاط بها <sup>(٢)</sup> .  
ويتحدث عن دهر محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فيذكر أن الخطابة شاعت  
فيه ، فكثرت الشعراء والخطباء . وناظمو ضرب الكلام <sup>(٣)</sup> .

---

(١) هامش الكامل ، ج ١ ص ٢١ (٢) هامش الكامل ، ج ١ ص ٤٧-٤٨

(٣) هامش الكامل ، ج ٢ ص ١١٤

ويصف عبد الله بن المقفع بأنه بليغ متأدب ، مقدم في بلاغة اللسان  
والقلم (١) .

ووصف بها الكلام واللفظ والانسان ، فيقول : إن الكلام لا يكون  
بليغاً إلا إذا سبق معناه لفظه ، ولفظه معناه (٢) ، وإن اللفظ البليغ يقرر  
المعنى الشريف تقريراً يبلغ القلب ، ويتمكن من نفس السامع (٣) .  
ويقول كذلك : إن الواصف البليغ يجسم المعنى ، ويصور الغائب حاضراً .

وإذا أردنا ترتيب هذه المعاني حسب التطور الطبيعي ، رجحنا أن  
البلاغة أولاً كانت تستعمل ملحوظاً فيها معنى الخطابة ، أو الحديث .

ويؤيد هذا : أن الجاهليين كانوا يقولون : هذا أشعر من ذاك أو هذا  
أشعر الناس في مقام الحديث عن الشعراء ، ولم يرد عنهم القول بأن هذا  
أبلغ من ذاك ، أو هذا أبلغ الناس في مقام الشعر .

ثم توسع في معناها حتى شمل فنون القول المختلفة من شعر ونثر وقصيد  
ورجز ، ثم عم حتى شمل الكتابة الفنية .

\*\*\*

---

(١) هامش الكامل ، ج ١ ص ٣٢

(٢) و (٣) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٧٣

ومما يجدر ذكره : أن كلمة البلاغة في الغرب قد استعملت أولا  
بمعنى فن الخطابة وحده ، بل إن بعضهم ليعرف البلاغة الآن بفن الملازمة  
بين الخطاب وبين الموضوع ، والحال حسب حاجة السامع أو القارئ .  
ويطلقون كلمة الخطاب اصطلاحيا على ما يشمل الرسالة والموضوع  
المسكتوب ، ويقولون إن البلاغة بدأت أولا كفن للخطاب ، ولكن  
تقدم الكتابة والطباعة جعل ميدانها أفسح ، وإن ظل تعريفها يلمح  
إلى ذلك المعنى الأول (١) .

---

Genung: The Working Principles of Rhetoric: (١)  
3rd ed. P. 3.



## ب - تعريفها

ذكر الجاحظ ، في كتاب البيان والتبيين ، عدة تعريفات للبلاغة ، بعضها منسوب الى العرب ، وبعضها منسوب إلى غيرهم ، وسنوردها جميعاً ، لأنها - أغلب الأمر - كان لها أثر في تاريخ البلاغة العربية :

١ - سأل معاوية بن أبي سفيان صحاراً العبدى : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز . قال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطىء . وأن تقول فلا تخطىء .

وقال المفضل الضبي : قلت لأعرابي منا ما البلاغة ؟ قال الإيجاز في غير عجز ، والإطناب في غير خطل . وقيل للمفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول وتقريب البعيد .

وهذان التعريفان لأعرابيين ، لم تثقفهما حضارة ، ولم تهذب آراءهما حياة فكرية منظمة ، يصفان الأشياء وصفاً ساذجاً بعيداً عن التركيب والتعقيد . ويكاد التعريفان يكمل كلاهما الآخر ويشرح ثانيهما أولهما . فالبلاغة عند عرب البادية هي سرعه الإيفهام ، أو بعبارة أوسع ، هي القصد في الكلام مع تمام الإيفهام ، وجعل الاطناب بقدر الحاجة . وهذا يشرح نزعة العرب إلى الإيجاز التي مر ذكرها .

٢ — أما عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة (٨٠-١٤٤ هـ)، فلم يتبادر إلى عقله، حين سئل عن البلاغة، هذا المعنى الفنى أو القريب منه، أو على الأقل لم يشأ الإجابة عنه؛ بل ظل يتنقل من حديث إلى حديث، وسأله يراجعه حتى لم يكذب يبقئ سوى هذا التعريف المتصل بالألفاظ والتعبير فذكره، ثم فسره تفسيراً يلائم جوه الدينى الوعظى .

عرف البلاغة بأنها تجبير اللفظ فى حسن الإفهام، وفسر هذا بأن تختار من الألفاظ ما تستحسنه الأذن ويقبله الذهن، وتنجذب إليه النفس فتقرر به حجة الله، وتدعو إلى الموعظة الحسنة من الكتاب والسنة . ويلحظ فى هذا التعريف معنى الصنعة والأناة، ويشرح ماروى عن عمرو ابن عبيد من أنه كان قليل الكلام موجز الحديث كارهاً لاطالة القول؛ إذ تدعوا إلى التكلف، والتكلف لا خير فيه<sup>(١)</sup>، وكثرة المتأنفين المتخيرين للألفاظ مقلون . ويبين كذلك ما روى عنه من أنه كان يعظ فيجيد الوعظ وينفذ قوله إلى القلوب فيبكيها .

٣ — أما ابن المقفع (١٠٦-١٤٢)، الذى عرف بثقافته الفارسية ونقله عنها إلى العربية، فقد عرف البلاغة تعريفاً قصد فيه إلى الإحاطة والشمول . ويظهر أن تعريفه لم يكن نتاجاً لتطور الفكرة الطبيعى، بل كان متأثراً بثقافة الأجنبية، وإن لم يعدم وجهاً للشبه بينه وبين ما سبقه .

ولهذا عد طريقاً في بابه كما مر .

ويمكن تلخيصه بأنه الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، والمعرفة بسياسة القول ، والمطابقة بين الكلام ومقتضاه .

وكان جرثومة التعريف الاصطلاحى وجدت عند ابن المقفع .

٤ — وقال كلثوم بن عمرو العتابي ، المتوفى سنة ٢٢٠ هـ ، حين سئل ما البلاغة : « كل من أفهمك حاجتك من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ . فاذا أردت اللسان الذى يفوق الألسنة ويفوق كل خطيب ، فأظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل بصورة الحق <sup>(١)</sup> »  
والقسم الأول من التعريف يكاد يكون توضيحاً للمدلول الكلمة اللغوى ، فهى عنده أن يبلغ المتكلم غايته من إفهام السامع غرضه على أتم وجه وأيسره . أما القسم الثانى فبين فيه النزعة الجدلية التى تميز تصوير الباطل حقاً والحق باطلاً ، وتلاعب بالمنطق وبالألفاظ .

وهذا القول ليس غريباً من العتابي ؛ فقد عاش فى الشام كما سبق ، وصحب البرامكة ، ونسب إليه من الكتب كتاب المنطق وكتاب الألفاظ <sup>(٢)</sup> .  
٥ — واختار الجاحظ تعريفاً للبلاغة فقال : « وقال بعضهم ، وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولنظفه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه

(١) البيان ، ج ١ ص ٩٠ ، ١٥٧

إلى قلبك» (١).

وهذا الاختيار يتفق مع مذهب الجاحظ الذي يدعو إلى التجويد اللفظي وحسن الصياغة، مع تحرى المعانى الشريفة.

٦ — تعريف البلاغة عند غير العرب :

روى الجاحظ عن محمد بن حسان ما يأتى : قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام . وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة . وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، وأن تدع الإفصاح بها إلى السكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة . ور بما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالنظر (٢).

ويظهر أن تعريف الفارسي أثر في بعض علماء البلاغة الذين قصروها على الفصل والوصل.

أما تعريف اليوناني ، للبلاغة بتصحيح الأقسام واختيار الكلام ، فواضح فيه النزعة الفلسفية الداعية إلى تحديد الألفاظ ، ووزن الكلمات بميزان دقيق ، وتحرى أن يكون كل لفظ لمعناه لفقاً ، والدعوة إلى التنسيق

والترتيب وانتظام أجزاء الموضوع لفكرة واحدة ، وإيراد العناصر والبراهين في ترتيب ، حتى يجذب البليغ انتباه السامع أو القارئ ، ولا يوقعه في الملل ولا يحمله إصر جهد ببذله في إدراك المراد .

وتعريف الرومي للبلاغة ، بالإيجاز الحسن في موضعه والإطالة الشافية في موضعها ، شبيه بتعريف الأعراب السابق .

وإذا نظرنا في تعريف بعض أهل الهند ، ولم ننس تعريف ابن المقفع وتحديثه عن بلاغة الكناية والإشارة وبلاغة السكوت وبلاغة الاحتجاج — رأينا نوعاً من الشبه بين التعريفين .

وقد أورد الجاحظ ترجمة صحيفة هندية في البلاغة جاء فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق ، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفئها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكماً أو فيلسوفاً عالماً ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ ، قد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفيح ، وعلى جهة الاستطراف والتظرف » (١) .

وهذا القول في جملته دعوة إلى الملاءمة بين الخطبة وبين السامعين  
لها ، ومخاطبة كل طائفة بما يناسبها ، وشرح للأسلوب الخطابي القائم على  
السهولة وعدم التكلف . والطريف فيه هو الربط بين البلاغة وبين المنطق ،  
وتقرير أن البليغ لا مناص له من تمام الإلمام بهذا العلم وحسن امتثاله ،  
وأنه لا يكفيه الاطلاع السريع والنظرة الطائفة .

## ج - مسائلها

يمكن إجمال المتفرق في كتب الجاحظ من المسائل البلاغية فيما يأتي :

١ - أمور تتصل بالنطق أو بأداة الخطابة :

لا بد لحسن البيان من إعطاء الحروف حقها من سلامة الإخراج ، وتكميل النطق وصحة اللسان . وهناك عيوب تعترى النطق ، أكثرها شيوعاً : اللثغة ، والتمتمة ، والفأفة ، واللفف ، والحبسة ، واللكنة ، والحسكة .

واللثغة : هي تعذر النطق بحرف ونطق غيره بدله ، وتدخل القاف والسين واللام والراء . فالقاف تنطق طاء ، والسين تنطق ثاء ، واللام تنطق ياء ، والراء تنطق ياء أو غينا أو ذالا أو ظاءاً .

وهناك لثغات شاذة لا سبيل إلى تصويرها ، كلثغة واصل بن عطاء . والتمتمة : هي التمتع في التاء وصاحبها تمام . والفأفة : هي التمتع في الفاء وصاحبها ففاء . واللفف : إدخال بعض الكلام في بعض . والحبسة : هي ثقل النطق على اللسان . واللكنة : هي ما يعترى العجم ، أو من نشأ فيهم من العرب ، من عدم القدرة على إخراج الحروف إخراجاً سليماً ، ومن الغلط في شكلها . والحسكة : عجز أداة اللفظ ، حتى لا تعرف المعاني إلا بالاستدلال .

وهذه العيوب جميعها تتصل باللسان . لكن هناك عيوباً أخرى ،  
منشؤها نزع الأسنان أو تشوه الفم ، تحدث صغيراً ونحوه عند النطق (١)

٢ — مظهر الخطيب :

لا تزان الشمائل ، ونقاء اللهجة ، وجهارة الصوت ، والجمال ، والحركة  
والإشارة ، واللباس ، ونحو هذا — أثر أى أثر فى المستمعين .

ومن عيوب الخطيب : البهر ، والارتعاش ، والرعدة ، والعرق ،  
والسعال ، والتنحنح ، والاستعانة .

ويطيل الجاحظ فى مثل هذه الأمور الخارجة عن جوهر القول ،  
ولكنها ذات أثر فى المستمعين (٢) . وقد اختلفت هذه المسائل من علم  
البلاغة المتأخر ، ولكن لما كانت البلاغة عند الجاحظ يلاحظ فيها  
معنى الخطابة كما سبق ، لم أجد مناصاً من إيراد هذه الأمور فى مسائل  
البلاغة .

٣ — فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام :

ينبغى أن تكون الكلمة فصيحة بريئة من تنافر الحروف ، حتى  
تبدو كأنها حرف واحد (٣) . وتجنب التنافر يكون بملاحظة الحروف

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٣٥ — ٤٨ وص ٥٨ و ص ٦٦

(٢) البيان ، ج ١ ص ١٠٢ (٣) البيان ج ١ ص ٦٣



التي لا تتجاوز ، فالجيم لا تقارن الظاء ، ولا السين ، ولا الضاد ، ولا الذال  
بتقديم ولا بتأخير (١) .

ويجب كذلك : أن تكون مألوقة غير غريبة ، فالفأفأة والقرقرة من  
الألفاظ الغريبة المستهجنة ، والمغربون : قوم مدخولون في عقولهم إذا  
كانوا من غير الأعراب . وهذا أبو علقمة يصيح بالناس حين هاجت به  
مرته ، فاجتمعوا عليه : مالكم تتكأ كؤون على تكأ كؤوم على  
ذى جنة ؟ . إفرنقوا عني ! فيقول رجل منهم : دعوه ، فان شيطانه  
يتكلم بالهندية ! .

وأغرب من هذا : أن يأتيه حجام يحجمه فيقول له : « أشدد  
قضب الملازم (٢) ، وأرهف ظببات المشارط ، وأسرع الوضع ، وعجل  
النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكرهن آيبا ، ولا  
تردن آتيا » ، فوضع الحجام محامه في جونتته وانصرف (٣) .

وكل هذا يبين مبلغ سخرية الجاحظ من الغريب وأهله ، والتكلف  
وأصحابه .

ويجب كذلك : أن يكون الكلام فصيحاً غير مبهم ولا متنافر .

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٦٤

(٢) جمع ملازم « خشبتان مشدود وسطهما بحديدة في طرفها مفتاح »

(٣) المحاسن والأضداد ، ط ليدن ، ص ١٤ — ١٥

فمن المستكره قول بشير في أحمد بن يوسف :

لم يضرها والحمد لله شيء وانثنت نحو عرف نفس ذهول

وقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فالقول الفصيح : هو المتلاحم الأجزاء ، السهل الخارج ، الخفيف

على اللسان (١) .

٤ — مطابقة الكلام لمقتضى الحال :

كثيرا مادعا الجاحظ إلى هذا المعنى الذي يلازم البلاغة إلى اليوم ،  
فتراه يقول : « حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقا ...  
ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم (٢) . ويعرض لوجوب  
تحرى الموضوع المتحدث عنه ، واختيار ما يلائمه من الألفاظ ، وعدم  
استعمال الاصطلاحات إلا في العلم الخاص بها . ثم يختم الحديث بقوله :  
( ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل ) (٣)

بل إن محافظة الجاحظ على تمثيل الحال ، ودقة التصوير للمراد ،  
جعلته يدعو إلى اللحن ومجانبة الإعراب حين يقتضى المقام هذا ، كحكاية

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٦٢ — ٦٣

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٧١

(٣) الحيوان ، ج ٣ ص ١٠٤

حال المولدين وإيراد نكتة ، ثم جعلته يذكّر أسماء العورات ويصطنع  
الأدب المكشوف ، ويرمى المنكرين لهذا بالتكلف للعفاف والوقار<sup>(١)</sup> .  
ولعل من أبلغ أقواله دلالة على هذا قوله : « لكل ضرب من الحديث  
ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ؛ فالسخيف  
للسخيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكناية في  
موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال . وإن كان موضع  
الحديث على أنه مضحك ومله وداخل في باب المزاح واللعب ، فاستعملت فيه  
الاعراب انقلب عن جهته ، وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة  
بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكرهها ويأخذ  
بأكظامها . وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحر... و... و... ارتدع ،  
وأظهر التقزز . واستعمل باب التورع . وأكثر من نجده كذلك فانما هو  
رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبيل والوقار إلا بقدر هذا الشكل  
من التصنع<sup>(٢)</sup> .

٥ - إرشادات بلاغية متنوعة ؛ من نحو انتقاء الألفاظ ، والاعتدال  
في القول ، والتغلب في المكان .

(١) اقرأ رسالته في القيان

(٢) الحيوان ، ج ٣ ص ١٢

٦ - وأسَاء جماعة فهم البلاغة ، فخالوا أنها نوع من الأحاجي والألغاز . ويتضح هذا من قول ابن بشار اليرقي : « كان عندنا واحد يتكلم في البلاغة ، فسمعتة يقول : لو كنت أنا ليس أنا وأنا ابن من أنا منه ، لكنت أنا أنا وأنا ابن من أنا منه . فكيف وأنا أنا ، وأنا ابن من أنا منه ! » .

٧ - اللفظ والمعنى :

برى الجاحظ : أن شأن البلاغة في الأسلوب واللفظ ودقة الصنعة ، ويخالف أبا عمرو في اعتبار المعنى مقياسا للبلاغة ، فيقول تعليقا على بيتين من الشعر : « وأنا قد سمعت أبا عمرو ، وقد بلغ من استجابته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبدا ، ولو لا أن أدخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه أشعر منه ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلي وإيما الموت سؤال الرجال  
كلاهما موت وليكن ذا أفضع من ذا لذل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإيما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك .

فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير (١) .  
فأبو عمرو ينظر إلى هذين البيتين ، فيرى أن معنهما - وهو أن  
المسألة أشد وقعا على النفس من الفناء ، إذ كلاهما موت ، ولكن الأول  
شمر من الثانی لذلة المسألة - جميل جدير بالتدوين ، ويغلب عليه طبع  
اللغوى فلا ينظر إلى ما فوق المعانى .

لكن الجاحظ يرى أن البلاغة فن كالصبغ والتصوير ، وأن المعانى  
تشبه المواد التى يصطنعها الفنان ، والألفاظ تشبه الشكل الذى تؤلف  
عليه الصورة ، والعبرة بالتأليف والشكل الناطق بالمواد والألوان . ذلك  
بأن المواد فى متناول الناس جميعا ، ولكن الفنان الحق هو الذى يتخذها  
أداة لتمثيل الحياة ومعانيها فى صور بارعة .

وهذا لا يعنى أن الجاحظ ينكر المعانى وخطرها فى باب البلاغة .  
فما كل مادة بصالحة للاصطناع ، ولا كل لون بملائم للاتخاذ فى كل حال .  
وكثير من الناس يستنبط مواد ويتدع ألوانا . ولهذا تراه يذكر من  
المعانى الغريب العجيب ، والشريف الكريم ، والبديع المخترع ؛  
وكيف يتنازعها الشعراء ، ويدعى كل أنها من بنات فكره ووحى خياله .  
وإن من هذه المعانى ما يخرجها الشاعر إخراجا لا يبارى ، فينصرف الشعراء  
عنه ويتحاشونه ، فيقول :

ولا يعلم في الأرض شاعر مقدم في تشبيهه مصيب تام ، وفي معنى  
غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع - إلا وكل  
من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يقدر على لفظه ، فيسرق  
بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فانه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه  
شريكا فيه ؛ كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم وأعاريض  
أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه . أو لعله  
يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : إنه خطر على بالي من غير سماع ،  
كما خطر على بال الأول . هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من أمر عنتره  
في صفة الذباب ؛ فانه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم  
يعرضوا له . ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ  
من استكراهه لذلك ، ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه  
في الشعر . قال عنتره :

جادت عليها كل عين ثرّة      فتركن كل حديقة كالدرهم  
فترى الذبابَ بها يغنى وحده      هزجاً كفعل الشارب المترنم  
غرداً يحكُّ ذراعَه بذراعَه      فعل المكبُّ على الزناد الأجزم

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد ، والأجزم : المقطوع  
اليدين . فوصف الذباب إذا كان واقفا ، ثم حك إحدى يديه بالأخرى ،  
فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين ، ومتى سقط

الذباب ، فهو يفعل ذلك .

ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنبرة .

فالجاحظ : قد استحسن المعاني مصوغة هذه الصياغة البديعة الدقيقة ،  
ومخرجة هذا الاخراج الفنى . لكنه يبغض المبالغة والغلو والتهويل ، ويرأها  
دليل الاستيحاش ، والإيغال في البداوة ، وينكر هذا اللون من شعر  
الأعراب القائم على مرافقة الغول والذئب ، ومحالفة الجن ، ويعده ضرباً  
من الغباوة وسوء التمييز (١) .

وتبدو عناية الجاحظ بالألفاظ والمعاني معاً في مواضع كثيرة من  
تتبه . فتراه كثيراً ما يضم المعاني إلى الألفاظ في الحديث عن البلاغة  
وتأثيرها في النفوس .

ومن هذا قوله : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ،  
ومعناه في ظاهر لفظه . . . فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان  
صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن  
التكلف - صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة » (٢) .

وأوضح هذا المعنى في فصل عقده تحت عنوان : « فصل في صفة  
من يقدر على الإبانة » ، جاء فيه : « وليس يقدر على ذلك إلا امرؤ في  
طبيعته فضل من احتمال غيرته ، وفي قريحته زيادة من القوة على صناعته ؛

(٢) البيان ، ج ١ ص ٤٧

(١) الحيوان ، ج ٦ ص ٧٨

حتى لا يضع اللفظ الحر النبيل إلا على مثله من المعنى ، ولا اللفظ الشريف  
الفخم إلا على مثله من المعنى . نعم : وحتى يعطى اللفظ حقه من البيان  
ويوفر على الحديث قسما من الصواب ، ويحقق للكلام حظه من المعنى ،  
ويضع جميعها مواضعها ، ويصفها بصفتها ، ويوفر عليها حقوقها من  
الإفصاح والإعراب « (١) .

فالبلاغة عند الجاحظ في الأسلوب والنظم ، ولكن المعاني ينبغي  
أن تكون كذلك شريفة ، فما كل معنى بصالح للتأليف البليغ ،  
والنظم البديع .

#### ٨- النظم :

تحدث الجاحظ عن النظم بمعنى البيان والإنشاء ، وجعل له أصنافا  
من القصيد ، والرجز ، والمزدوج ، والمجانس ، والأسجاع ، والمنثور (٢) .  
كما وردت كلمة النظم بمعنى التأليف في مواضع عدة (٣) . وذكر  
النظم في معرض حديثه عن إعجاز القرآن ، فقال مرة : إن الرسول  
نحى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه (٤) ، وقال أخرى : إن

(١) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٣٧

(٢) هامش الكامل ، ج ٢ ص ١٠٣

(٣) هامش الكامل ، ج ٣ ص ٧ و ١٠٣ و ١٢٨ و ٢٠٣

(٤) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٤٤



الله صرف نفوس العرب عن المعارضة للقرآن ، ورفعها من أوهامهم بعد أن  
تجداهم الرسول بنظمه .

وشرح الحكمة في هذا، فقال : «ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع  
فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت  
القصة على الأعراب وأشبه الأعراب والنساء وأشبه النساء ، وللقى ذلك  
المسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل  
والقال » . ثم يقول بعد كلام آخر : « وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه  
صدق<sup>ه</sup> نظمه البديع ، الذي لا يقدر على مثله العباد ، مع ماسوى ذلك من  
الدلائل التي جاء بها من جاء به » (١) .

ومن هذا يتبين أن إعجاز القرآن عند الجاحظ في نظمه ، ولكن  
الله صرف العرب في الوقت نفسه عن محاولة محاكاته خشية الفتنة .  
وقد عني بموضوع النظم حتى ألف فيه كتابا ، أسماه «نظم القرآن» .

---

(١) كتاب الحيوان ، ج ٤ ص ٣٢

## الفصل الثاني

البيان : معناه ، تعريفه ، مسأله

### ١ - معنى البيان

١ - أتى البيان بالمعنى اللغوي العام في مواضع كثيرة من كتب الجاحظ ، فكان بمعنى الإفهام والدلالة عندما يورد قول الله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ) ، ثم يقول : ( لأن مدار الأمر على البيان والإفهام )<sup>(١)</sup> ، وحين يقول ، في معرض الحديث عن الدلالة ووسائلها : « فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان »<sup>(٢)</sup> .

ومن هنا قال : إن لما سوى الإنسان من الحيوان والجماد دلالة تسمى بيانا ، وذكر أن الخالق وصل بين معارف الخلق بالبيان عنها ، فكان سببا فيما بينهم ، ثم لم يرض من البيان بصنف واحد ، بل عدد وأظهر ، فجعله في خمسة أنواع : لفظ ، وإشارة ، وعقد ، وخط ، وحال . . . ورطانة الأعجمى كذلك بيان ، كما أن صوت الحيوان بيان ، وإن قال عربي : إنه ليس من البيان ، لأنه غير مفهوم عنده ، فهو أيضا لا يفهم

(٢) البيان ، ج ١ ص ٦٨

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٨

كلام عامة الأمم ، ولا يفهمون كلامه ، فيحرق لهم أن يخرجوه من البيان كما أخرج كلامهم منه .

أما الصحيح : فهو أن تلك الأقدار من الأصوات التي يستعملها العربي « هي : نهاية حاجاته والبيان عنها ، كما أن الأقدار من الأصوات التي يستعملها الأعجمي هي نهاية حاجاته والبيان عنها »<sup>(١)</sup> فشكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح<sup>(٢)</sup> . بل إن النمل لها بيان يفصل بين المعاني التي هي بسبيلها<sup>(٣)</sup> .

وقد وصف البيان بالرداءة والفساد ، كما وصفه بالحسن والجودة . وكان بمعنى العيان والظهور في نحو قوله : « أنت تجرد ذلك عيانا ، وتشهده عينك بيانا » .

وكان بمعنى الإيضاح أو البرهان في قوله عن القرآن إن ناسا طعنوا فيه « بغير علم ولا بيان »<sup>(٤)</sup> ، وفي مرادفته بين البيان والبرهان في قوله : « سأوضح لك ذلك بالبرهان القاطع والبيان الساطع »<sup>(٥)</sup> .

وفي قوله : حين يتحدث عن الأخبار وتدافعها وفقد الدليل عليها : « فوجدنا الأخبار مختلفة ، والمختلف متدافع ، وليس في المتدافع ، والمتكافي بيان » .

(١) البيان ، ج ١ ص ٦٩ (٢) الحيوان ، ج ١ ص ٦٩

(٣) الحيوان ، ج ٤ ص ٦١٣ (٤) الحيوان ، ج ٤ ص ٣

(٥) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٢٩

٢ - ولكنه أتى كذلك بالمعنى الفنى ، أو ما هو قريب منه .  
فكان بمعنى البلاغة حين يضع البيان مرادفا لها ، ويذكر ما فى البلاغة  
المشوبة بالتكلف ، والبيان الممزوج بالعمل ، من لائمة ومذمة (١) .  
ويظهر هذا المعنى فى قول جعفر بن يحيى ، وقد سئل ما البيان : « أن  
يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا  
تستعين عليه بالفكرة . والذى لا بد منه : أن يكون سليما من التكلف ،  
بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل » ، وهذا هو ما قيل  
فى البلاغة كما سبق .

ثم يعلق الجاحظ على هذا بقوله : « وهذا هو تأويل قول الأصمعى :  
« البليغ : هو من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر » ، فيجعل ما قيل فى  
البيان تأويل ما قيل فى البلاغة . كما يظهر فى قوله عند تكلمه عن صناعة  
البلاغة ، وكتب الأعاجم فيها : « فمن قرأ هذه السكتب عرف غور تلك  
العقول ، وعرف أين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة » (٢)  
وفى قوله عند التكلم عن بلاغة العرب : « وكان صاحب المنطق نفسه  
بكى اللسان غير موصوف بالبيان ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق  
الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة » . فهو فى

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٩

(٢) البيان ، ج ٣ ص ٧

هذه العبارة وضع البلاغة والخطابة والبيان في أوضاع متساوية ، مقابلا بينها وبين المنطق .

والأمثلة عديدة على الجمع بين البلاغة والبيان ، جمعاً فيه معنى المرادفة .

واستعمل البيان كذلك في المعاني التي استعملت فيها البلاغة :

٣ — فأتى مقابلاً للمعنى في قوله : سبحانه مثل في البيان و باقل مثل في العى ، وفيما رواه من قول حميد بن ثور الهلالي :

أتانا ولم يَعْدِلْهُ سبحانه وأتبل بياناً وعلمنا بالذى هو قائل

فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العى لما أن تكلم باقل<sup>(١)</sup>

وفي قول زيد بن علي جواباً لمن سأله : الصمت خير أم الكلام ؟ .

«أخزى الله المساكنة فما أفسدها للبيان وأجلبها للحصر ! والله للمساراة أسرع في هدم العى من النار في يبس العرفج ، ومن السيل في الحدور»<sup>(٢)</sup> .

وفي قول الجاحظ : « البيان بصر ، والعى عمى » ، وفي قول يونس

ابن حبيب : « ليس لعبي مروءة ولا لمنقوص البيان بهاء »<sup>(٣)</sup>

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٤ (٢) البيان ، ج ١ ص ٢٠٥

(٣) البيان ، ج ١ ص ٦٩

وفي قوله عن الكتاب : « إن شئت كان أبين من سحبان وائل ،  
وإن شئت كان أعيا من باقل »<sup>(١)</sup> .

وفي قوله : « كسد العى والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » .

ولوحظ فيه معنى الخطابة أو الحديث ، كالبلاغة . فتراه يعقد فصلا  
عنوانه : « في صفة من يقدر على الإبانة » يذكّر فيه الصفات التي  
تتصل بالقدرة على الخطابة ، من نحو القوة في الموقف وزيادة القرينة  
وتوضيح المعاني وتخير الألفاظ وتجنب الغريب<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث عن حاجة البيان إلى سهولة المخرج ، وجهارة الصوت ،  
وتكميل الحروف ، وإعطائها حقها من الظهور<sup>(٣)</sup> ، والإشارة باليد  
والرأس<sup>(٤)</sup> ، كما يذكر لوازم الخطابة في باب البيان .

ويتحدث عن إخراج الحروف والإلقاء ، ومقومات النطق ،  
وعيوب اللسان ويفصل القول فيها .

٥ — وكان بمعنى الفن المستقل ذى المحامد ، والمحاسن ، والمبادئ ،  
والأصول التي تدرك بالتعلم . فتراه يتحدث عن صحة البيان ، وما يحمده  
وما لا يحمده فيه .

---

(١) الحيوان ، ج ١ ص ٢٠

(٢) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٢٣٧

(٣) البيان ، ج ١ ص ٣١ (٤) البيان ، ج ١ ص ٧٠

ويورد قول النجفي : إن سبق ( كان ) ، ( بلا ) غير محمود في باب  
البيان<sup>(١)</sup> ، كما يجمع بينه وبين غيره من الفنون التي يتسابق في ميدانها  
الناس ، ويسعون إلى التفوق فيها ، كالفروسية<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث عن البيان وتعلمه والقدرة منه على ما يعجز الأقران عنه<sup>(٣)</sup> .

٦ — وبمعنى الخلابه في التعبير والعناية بالقول في نحو حديثه عن  
خديعة البيان ، وإيقاعه في حبائل النفاق<sup>(٤)</sup> ، وذكره البيان ، واقتدار  
صاحبه على نصرة رأيه بالحق وبالباطل واستشهاده بقول أعرابي :

برئت إلى الرحمن من كل صاحب أصاحبه إلا حماس بن ثامل

وظنى به بين السماطين أنه سينجو بحق أو سينجو بباطل<sup>(٥)</sup>

وروايته عن مالك بن دينار أنه ربما سمع الحجاج يخطب ذا كرا  
ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسه أنهم يظلمونه ، وأنه  
صادق البيان ، لحسن تخلصه بالحجة .

ثم يقول الجاحظ : فالذين كرهوا البيان ، إنما كرهوا مثل هذه  
المذاهب<sup>(٦)</sup> .

(١) الحيوان ، ج ٣ ص ٩٠

(٢) الحيوان ، ج ١ ص ١٧٩

(٣) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٨٠

(٤) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٨٣

(٥) البيان ، ج ١ ص ١٥٠

(٦) البيان ، ج ١ ص ٢٤٩

ومن هذا يتبين أن أمر البيان يخالف كل المخالفة لأمر البلاغة ، فقد كان القوم حتى هذا العصر لا يفهمون من الكلمة هذا المعنى الاصطلاحي المتأخر ، بل تكاد كلمة البيان تكون عندهم مرادفة لكلمتي الفصاحة والبلاغة . واستعمالات كلمة البيان من ناحية الإضافة ووصفها أو الوصف بها والعطف عليها كاستعمالات كلمة البلاغة ، اللهم إلا انفراد البيان بوصفه بالرداءة والفساد والجودة والحسن والجمال والسطوع <sup>(١)</sup> ، فمن البيان والبلاغة أتت صفة للمنطق واللفظ واللسان والناس والقلم والخطباء ، وتعاطف الخطباء والبلغاء والابناء ، والبلاغة والخطابة والبيان عطف تفسيري .

أما الفصاحة فقد أتت كذلك مرادفة للبيان والبلاغة في مواضع كثيرة وعطفت على البلاغة في قوله من كلام مستهجن رواه بعض الكتاب في كتبهم : « فان كانوا قد رووا هذا الكلام ، لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والخطابة » . كما عطفت على البيان في قوله : « فلو أننا لم نجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم فضيلة في نبوة ولا مزية في البيان والفصاحة لكننا لا نجد بدا من أن نعلم أنه كواحد من الفصحاء » <sup>(٢)</sup> .  
وعطف الافصاح على البيان عطف تفسيري في قوله : « ومدح الله

---

(١) البيان ج ١ ص ٢٨ و ٥٩ و ٧٥ و ج ٢ ص ٦٧ و ٢٢٢ و ج ٣ ص ١٧٣  
وهامش الكامل ج ١ ص ٢٦ و ٨٦ و ج ٢ ص ٨٢ و ١١٤ و ٣٢٩ و ٢٣٥ و ٢٣٦  
والمحاسن والأضداد ص ٦ والحيوان ج ١ ص ١٤٠ و ٣:٦  
(٢) الحيوان ج ٤ ص ٩٣



القرآن بالبيان والافصاح وحسن التفصيل والايضاح ، وبجودة الافهام  
وحكمة الابلاغ<sup>(١)</sup> .

وقد تأتى بمعنى مطلق النطق الذى يفصل بين الانسان والحيوان ،  
فيدخل فيها كل تعبير بأى لغة من اللغات . ومن هذا قوله : « والانسان  
هو الفصيح وهو الناطق . . . » .

وقوله : « والانسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية  
أو بالرومية ، وليس العربى أسوأ فهما لطمطمة الرومى من الرومى لبيان لسان  
العربى . فكل إنسان من هذه الوجهة يقال له فصيح » .

غير أن الفصاحة كان لها بعد هذا معنى مستقل يميزها عن البيان  
والبلاغة ومطلق النطق . ذلك هو الأداء اللفظى الكامل من حيث مخارج  
الحروف والبعدهن اللكنة واللحن والعجمة .

والنصوص فى هذا كثيرة ، منها قوله :

« وقال معاوية يوماً : مَنْ أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا  
عن خلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة  
مضر ، وليست لهم غممة قضاة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟  
قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جرّم<sup>(٢)</sup> . »

فالفصاحة هنا البعد عن هذه العيوب اللفظية المتنوعة . وتحدث عن

(٢) البيان ج ٣ ص ١٢٧

(١) البيان ج ١ ص ٢٦

العرب الذين يفسدون لغتهم بطول إقامتهم في دار أعجمية ، وكيف يلحنون  
بنصب المرفوع ورفع المنصوب ، وعلل لهذا بأن اللغة العربية إنما استوت  
«وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجزيرة» .  
ثم ضرب المثل لهذا بيزيد بن كثوة - وقد كان أعرابيا تؤخذ عنه اللغة .  
فقال : « ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم  
مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول  
موضع العجمة <sup>(١)</sup> » .

وقال نقلا عن أبي عمرو بن العلاء :

« لم أرقرويين أفصح من الحسن والحجاج ، وكان مازعوا لا يبرهما  
من اللحن » . فيجعل الفصاحة بمعنى البعد عن اللحن <sup>(٢)</sup> .

وقابل بينهما وبين اللكنة في قوله :

« فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة  
واللكنة والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب ، كله  
سواء وكله بيانا <sup>(٣)</sup> » .

ومما سبق في فصل البلاغة يتبين أن الفصاحة بهذا المعنى كانت  
عنده شرطا للبلاغة .

(٢) البيان ج ١ ص ١٢٣

(١) البيان ج ١ ص ١٢٢

(٣) البيان ج ١ ص ١٢٣

## ب - تعريف البيان

١ - عرف الجاحظ البيان تعريفا عاما ، فقال : إنه اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويلم بما فيه .

وشرح هذا وعمل له بأن مدار الأمر وغاية القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان (١) .

٢ - وعرفه في هذا الموضوع نفسه تعريفا آخر ، فقال : إنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي ، وإن البيان بهذا المعنى هو الذي دعا إليه الله ، ونطق به القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت وأصناف العجم ... ومهد لهذا التعريف بذكره أن المعاني مستورة مكنونة وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ما في ضمير أخيه الانسان منها ، وحياتها في ذكر الناس لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها ؛ وبهذا تقرب من الفهم وتظهر وتؤلف . وأقدار المعاني وظهورها متصللة بأقدار الدلالات ووضوحها والاشارات وصوابها والايراد وحسنه . . . .

وبعد أن يورد هذا وذاك ، يذكر أصناف الدلالات من لفظ وإشارة

وعقد وخط وحال ، إذ جميعها تدل وجميعها تبين .

٣ - أما جعفر بن يحيى المعروف بالابحاز وحضور الجواب والبعد عن التكلف ، فيعرف البيان بقوله : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويحلى عن مغزائك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة . ولا بد من أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً عن الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل .

ويعقب الجاحظ على هذا التعريف بقوله : « وهذا هو تأويل قول الأصمى : البليغ هو من طبق المفصل وأغناك عن المفسر » .

وفي جميع هذه التعاريف ترى نزعة إلى تمام الافهام وحسن التجلية للمعاني ، كما أن حديث الجاحظ لا ريب عن المعاني وموتها وحياتها ، وحظ الألفاظ بخاصة والدلالات بعامة في البيان عنها - فيه تفكير وعمق .

وإذا تأملنا في تعريف جعفر بن يحيى للبيان ، وملاءمة الجاحظ بينه وبين تعريف الأصمى للبلاغة ، ولاحظنا تعريفات البلاغة السابقة - تبيننا مدى مرادفة البيان للبلاغة ، ومقدار اتحاد معناهما في ذلك العصر .

على أنا إذا نظرنا في التعريفين الأولين ، وفي أنواع الدلالات على المعاني ، ولم ننس مرادفة البيان للبلاغة حينئذ ، واختلاط أمرها على ما بينا ، وأنهم قالوا إن البلاغة كما تكون في التصريح تكون في الكناية والتلميح وغيرها مما ذكر في باب البلاغة - إذ قدرنا كل ذلك ، فهل يمكن أن

نجد لبحوث البيان المتأخرة ولتعريفه بأنه العلم الذي يعرف به إيراد المعنى  
الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه . أو بعبارة أخرى : العلم الذي  
يبين طرق الدلالات على المعنى الواحد — أصلا؟ ربما صح هذا .  
على أن بعض موضوعات علم البيان كانت معروفة عندهم ، وكان  
يطلق عليها اسم البديع . وسنوردها فيما يأتي .

## ج - مسائل البيان

ذكر الجاحظ في معرض الحديث عن البيان مسائل بعيدة عن علم البيان المتأخر ، فعرض لتنافر الألفاظ والحروف والغرابة وما اليها مما ذكرناه في باب البلاغة (١) .

ومعروف أن هذه مسائل وضعت أخيراً في باب الفصاحة ، وجعل البيان علماً خاصاً يبحث التشبية والمجاز والكناية .

ويلاحظ كذلك أن الجاحظ جعل عنوان كتابه «البيان والتبيين» ، وأورد فيه أموراً متنوعة متصلة بالبلاغة والخطابة ، وضمنه نثراً ونظماً . وهذا كله من البيان عنده . وعقد باباً خاصاً للبيان تحدث فيه عن البلاغة . . .

ومن هنا يتأكد ما مر من أن الفرق بين البلاغة والبيان لم يكن ظاهراً حينئذ ، بل إن هذا الاختلاط قد ظل موجوداً إلى العصور المتأخرة . فيسمون العلوم الثلاثة علوم البلاغة أو البيان ، ويسمون البلاغة براعة وبيانا وفصاحة أيضاً (٢) .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٢ - ٧٢

(٢) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، طبعة كلكتة سنة ١٨٦١ ،

ص ١٣٨ مجلد أول .

على أن بعض بحوث البيان بالمعنى الاصطلاحي كانت معروفة عندهم ،  
وكان يطلق عليها اسم « البديع » .

فالجاحظ يقول : وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن  
في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة <sup>(١)</sup> . والبديع هنا اسم  
شامل للمجاز وما إليه من الصور البيانية . ويتبين هذا من إيراد الجاحظ  
لأبيات منها :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد  
وتعليقه عليه بقوله : « قوله هم ساعد الدهر إنما هو مثل ، وهو الذي  
يسميه الرواة « البديع » وقد قال الراعي :

هم كاهل الدهر الذي يتقى به ومنسكبه إن كان للدهر منكب  
وقد جاء في الحديث « موسى الله أحد ، وساعد الله أشد » . والبديع  
مقصود على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان .  
والراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب  
شعره في البديع <sup>(٢)</sup> .

---

(١) البيان ج ١ ص ٥٥

(٢) البيان ج ٣ ص ٢٤٢

وهي هي ذى مسائل البيان كما تصورهما كتب الجاحظ :

### ١ - التشبيه

أنى التشبيه عند الجاحظ بمعنى الربط بين شيئين بأداة لجهة جامعة بينهما .

فتراه يقول : إن جريراً شبه أشياء من المرأة بأشياء من الحشرات وغيرها ، ومن بينها الجعل في قوله :

ترى التيمى يزحف كالقروبي<sup>(١)</sup> إلى تيمية كعصا الليل  
يشف الزعفران عروس تيم وتمشى مشية الجعل الدحول  
يقول المجتلون عروس تيم سوا أم الحنين ورأس فيل<sup>(٢)</sup>  
وتنبه إلى ما في هذه الأبيات من تشبيه أدوات الكاف في البيت  
الأوّل ومحذوف الأداة في البيت الثانى .

ويذكر كذلك التشبيه بكأن ، حين يقول : إن الأعشى قد شبه  
ناقته بالظليم ، وإن الأعشى قد سلك هذا المسلك حين قال :

كأنى وردنى والقَرَابَ ونُمرقى

على خاضب الساقين أر عن تَقْنَقِ<sup>(٢)</sup>

---

(١) الحيوان ، ج ٦ ص ١٣٢ (٢) الحيوان ، ج ٤ ص ١١٥



وحين يذكر كافر أبي نواس ، ثم يقول : إنه لا يعرف له من بعد  
هذا خطأ سوى قوله عن الدار وعدم إجابتها لمستنطقها :  
كأنها إذ خرست جارمٌ بين ذوى تفنيده مطرقٌ  
فقد عابوه بذلك ، وقالوا : لا يقول أحد لقد سكت هذا الحجر ، كأنه  
إنسان صامت ، وإنما يوصف خرس الإنسان بخرس الدار ، ويشبهه  
صممه بصمم الحجر (١).

وفي هذا القول يظهر فهم الجاحظ لوجه الشبه ولزوم كونه أقوى في  
المشبه به منه في المشبه .

ولكن بيت أبي نواس قد يفهم ما فيه على أنه تشبيه مقلوب ، لم  
يعرفه الجاحظ ، قصد به إلى تمثيل حال المرتج عليه أمام قضاائه ، فيبدو  
التشبيه إذاً جميلاً بديعاً . لكن هذا التخريج يضعفه أن المقام مقام  
الحديث عن الدار ، ووحشتها ، لا عن المجرم ، وتمثيل حال الارتجاج  
عليه .

وعرض كذلك للتشبيه « بمثل » في قوله : إن الأعشى قد شبهه  
النعام بقطع الرباب المتدلى من السحاب في هذه الأبيات :

يا هل ترى برقاً على السجبلين يعجبني أنجابه (٢)

(١) الحيوان ج ٤ ص ١٤٦

(٢) الحيوان ج ٤ ص ١١٥

متساقط الأكناف ذى زجل أرب به سحابه  
مثل النعام معلقاً لما رقا ودنا ربابه (١)

وفى حديثه عن التشبيه فى الآية الكريمة : ( وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي  
آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ،  
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ،  
فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ،  
ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ) .

فى هذا الحديث يتبين مدى معرفة القوم فى ذلك العصر لوجه الشبه  
وصورة تحققه فى المشبه به والمشبه ، فقد قال أناس : إن هذا المثل لا يجوز  
أن يضرب لحال من أعطى شيئاً ، فلم يقبله ولم يزد على الرفض ، وإن  
اللهث لم يقع فى موضعه ، إذ الكلب إنما يلهث لعطش أو حر أو تعب .  
ويجيب الجاحظ عن هذا الاعتراض بصحة احتمال أن المكذب  
يطلق على من تكرر منه التكذيب ، أو يشبهه الذى أوتى الآيات  
والأعاجيب ، والبرهانات ، والكرامات ، فى بدء حرصه عليها ، وطلبه  
لها بالكلب فى حرصه وطلبه ، ويشبه رفضه لها وقذفه بها من يديه ،

وردها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذ ارجع ينبح  
بعد طردك له ، وشدة النباح تقتضى اللهث .  
ثم يقول : إن اللهث طبع في الكلاب يأتيها وهي رابطة وادعة ،  
وليس سببه التعب وحده (١) .

والمهم في هذا : هو أن الجاحظ ومعاصريه قد فهموا الصلة بين  
المشبه به والمشبه فهماً صحيحاً ، وأنهم أخذوا يخضعون الأدب ، وإن  
كان الأدب القرآني ، للمعايير النقدية والبلاغية ، في حرية وصرامة .

ولاحظ الجاحظ كذلك أن وجه الشبه ، إنما هو ناحية فقط  
من النواحي الموجودة في المشبه به ، لا كل ما فيه ، وأن التشبيه : أمر دفع  
إليه قصور اللغة عن دقة التصوير للمعاني .

ويقرر أن الشاعر والواصف قد يعجزان عن تمثيل الحال ، فيشبهان  
بأحسن ما يجدان ، ولا يتحقق لهما شرط التشبيه الصحيح ، وهو أن يكون  
المشبه به أقوى في الصفة من المشبه .

مثال هذا أن إنساناً لا يشك في أن الجارية الفاتكة الحسن أحسن  
من الظبية ، وجيدها أحسن من جيدها ، وعينها أحسن من عينها

ومع هذا ترى البعض يقول : كأنها الشمس ، وكأنها القمر . والشمس  
وإن كانت بهيمة ، فإمما هي شيء واحد في وجه الجارية الحسنة ، بخلقها  
المؤلف من ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب .  
فالأمر في الحالين متفاوت ، ولكن الشعراء والواصفين قد اضطروا  
إلى هذا . ولولم يفعلوه لما ظهرت بلاغتهم ولا فطنتهم (١) .

## ٢ - المجاز

المجاز عند الجاحظ ما يقابل الحقيقة ، فتراه يتحدث عن القرآن وأنه ليس بمخلوق إلا على المجاز<sup>(١)</sup> ، كما يقابل بين الحقيقة والمجاز ويعمل للشأنى ضمنا بتوسع أهل اللغة<sup>(٢)</sup> .

وكان المجاز عنده هو استعمال اللفظ في غير حقيقته توسعا من أهل اللغة . وهو يعرض لقول المتكلمين في الزيت الذي في المصباح ، وكيف يفنى بتصاعده دخانا ، وما يقال من أن النار تأكله ، ثم يقول : «فان قلت فقد قال الله عز وجل في الكتاب : ( الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ) ، فقد علمنا أن الله عز وجل إنما كلمهم بلغتهم» . وبعد أن يستشهد بأقوال الجاهليين المؤيدة لهذا الاستعمال المجازي في القرآن ، يقول : «باب آخر - وهو قول الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا) وقوله : (أَكَاوُنَ لِّلسُّحْتِ ..) ، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحداً في سبيل الأكل . وقد قال الله عز

(١) هامش الكامل ج ٢ ص ١٢٤

(٢) هامش الكامل ج ٢ ص ١٢٨ و ١٢٩

وجل : (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) . وهذا أيضاً مجاز آخر (١) .  
وبعد أن يورد أمثلة للأكل على الحقيقة ، يورد أمثلة للأكل على  
المجاز ، من نحو قوله تعالى : (أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) ،  
وقول الشاعر :

سألتنني عن أناسٍ أكلوا أكل الدهرُ عليهم وشرب  
ثم يقول : « فهذا كله مختلف ، وهذا كله مجاز (٢) » .  
وفي باب آخر يورد استعمالات فعل ذاق المجازية ، من نحو قوله تعالى  
(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) ، وقول السيد إذا بالغ في عقوبة عبده :  
ذق ، وكيف ذقته ، وكيف وجدت طعمه . وقول الشاعر :

وإن الله ذاق حلوم قيس فلما ذاق خفتها قلاها  
رآها لا تطيع لها أميراً فخلاها ترددٌ في خلاها

ثم يقول :

وللقوم إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم ، وهذه أيضاً فضيلة  
أخرى . وكما جوزوا لقولهم أكل وإنما عض ، وأكل وإنما أفتى ، وأكل  
وإنما أحاله ، وأكل وإنما أبطل عينه ، جوزوا أيضاً أن يقولوا ذقت ما ليس  
يطعم ، ثم قالوا طعمت لغير الطعام » .

---

(١) الحيوان ج ٥ ص ٩ و ١٠

(٢) الحيوان ج ٥ ص ١٠

ولعل قوله « ثقة بفهم السامع » يعني ما يسميه المتأخرون « قرينة دالة على المقصود » .

ويعرض قول المتكلمين ان الحرارة تورث اليبس ، وكيف لا يصح ، لأن الحرارة إنما ينبغى ان تورث السخونة وتولد ما يشاكلها . ثم يقول : « إلا أن ينهبوا إلى سبيل المجاز... فان ذهبوا إلى غير المجاز ، فقد أخطأوا (١) » . وقد يؤيد هذا قوله في معرض الحديث عن الأمانى وذمها : « وقيل لزيد : أيسرك أن عندك قنينة شراب ؟ قال : يا ابن آدم ، من يسره دخول النار ، على المجاز ؟! (٢) » .

وكيفما كان الأمر ، فيتضح من الأمثلة السابقة أن معنى المجاز عنده استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، توسعاً من أهل اللغة وثقة من القائل بفهم السامع ، وأنه كان عاماً على نحو يشبه المجاز الاصطلاحي المتأخر .

\*\*\*

وعرف المجاز العقلي لعهد الجاحظ ، وان لم تعرف تسمية . فقد أعطانا بضعة أمثلة له ، ووقف عندها يرد على إنكار المنكرين لهذا اللون البياني . فالحسن سمع رجلا يقول : طلع سهيل ، وبرد الليل ، فكره ذلك . وقال إن

(١) الحيوان ج ٥ ص ١٣

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٦٢

سهيلا لم يأت ببحر ولا ببرد قط . وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل  
للغيم والسحاب ما أخلقها للمطر . لكن الجاحظ لا يقر إنكار المنكر ولا  
يوافق على كراهية الكاره ، وإنما يقول بعد الأول « ولهذا الكلام مجاز  
ومذهب » كما يقول بعد الثاني « وهذا كلام مجازه قائم » ، و بعد مثال  
آخر : « وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل »<sup>(١)</sup> .

ويحتاج لهذا الاستعمال بقوله :

« وقد جاز في كلام العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ،

وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا  
ومن هذا يتبين أن بعض الناس لذلك العهد قد أنكر استعمال هذا  
اللون من الكلام ، وكان أصل إنكارهم المعنى الديني الذي يدعو إلى  
إسناد جميع الأعمال إلى الله تعالى : ولكن الجاحظ قد فهم هذا الاستعمال  
وشرحه ، واحتج له بشواهد في اللغة ، وقال إن مجازه عند الناس سهل .  
لكن كلمة المجاز هنا لا تعني ، كما هو واضح في الأمثلة السابقة ، مقابل  
الحقيقة ، وإنما تعني التأويل أو التفسير أو المعنى .

كما عرف الجاحظ ما سمي بعد بالمجاز اللغوي ، وعلل له حين فسرقول  
الله تعالى : ( يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ ) ، وقال إن العسل ليس بشراب



وإنما يحول بالماء شراباً أو بالماء نبيذا ، فسماه شراباً ، إذ كان مما يجيء منه  
الشراب . فقرر بهذا أن تسمية الشيء باعتبار ماسيؤول إليه جائزة في البيان  
العربي (١) . كما ذكر عادة العرب وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبته لغيره  
وملا بسته له ، فيطلقون عليه اسم الغير . فهم سمو ارجيع الانسان غائطاً ،  
والغيطان البيوت التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة ، ومنه  
العذرة ، وإنما العذرة الفناء والأفنية هي العذرات . ولكن لما طال إلقاؤهم  
النجو في أفنيتهم ، سميت تلك الأشياء التي رموا بها باسم المسكان الذي  
رميت فيه . كما أورد أمثلة غير هذه وقال عنها : إنها من قبيل الكناية ،  
وترك التصريح بأشياء لا يحسن ذكرها .

---

(١) الحيوان ج ٥ ص ١٢٨

منه من جيلان

### ٣ - الاستعارة

ن ليمان في قوله فمبارك

ويغنا متبعمه تاله انما

والخازن الاستعارة عن غير الجاحظ هي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه .  
منه من قوله فتراهم يتجادلون عن الألفاظ المستعملة في غير ما وضعت له ، ويقول في  
هذه لقول الله عز وجل : ( هذا نزلهم يوم الدين ) إن العذاب لا يكون نزلاً ،  
وإنما هو ما أقام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمي باسمه . فقد قال الله  
عز وجل : ( ولهم رزقهم فيها بكره وعشياً ) ، وليس في الجنة بكره ولا عشى .  
ولكنه مقدار البكر والعشيات ، وعلى هذا قول الله عز وجل ( وقال الذين  
في النار لخزنة جهنم ) والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ،  
ولا يختار دخولها إنسان فيمنع عنها . ولكن لما قامت الملائكة مقام  
الحافظ الخازن ، سميت به (١) .

ثم علق على قول الشاعر :

وظفقت سحابة تغشاها تبكي على أعراضها عيناها

بقوله : « وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة

وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه .

ويقول إن الظبية اسم للفرج من الحافر والجمع الظبيات ، وقد استعاره

أبو الأخرز فجعله للخف (٢) .

كما أن المنسم للبعير ، ولكن ربما استعاروه لغيره (١) .  
ولكن فعل استعاراتي كذلك بمعنى اتخذ واستعمل ، حين قال إن الفرج  
كناية عن قبل المرأة ، وأما الاسم الأول فهو حر وأصله حرح . . .  
ولكنه قد يستعار (٢) .

على أن الجاحظ قد يستعمل عبارات (على المثل) و (على الاشتقاق)  
و (على التشبيه) أو (في معنى التشبيه والاشتقاق) بعد إيراد أمثلة الاستعارة ؛  
نحو قولهم : إن النار تأكل الدهن الذي في المصباح أو تشر به (٣) .

وكثيراً ما استعمل لفظ التشبيه للدلالة على معنى الاستعارة . فالأثني  
من ولد النعامة يقال لها قلوص على التشبيه بالنعامة من الأبل (٤) ، وأبو  
الشمقمق جعل الأير أصم على التشبيه (٥) ، والطير يسمى صوتها (٦) منطقاً  
على التشبيه بالناس ، والخرطوم للفيل ولكن خطم الكلب والخنزير  
والذئب يسمى خرطوماً على التشبيه (٧) ، ونحو هذا كثير (٨) .

وله كلام أشبه بالتحليل للاستعارة أو ما سمي بهد إجراء الاستعارة  
في نحو قوله : « شهبوا الحقد الكامن في القلب الذي يسرى ضرره وتدب

(١) الحيوان ج ٤ ص ١١٢ (٢) الحيوان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) الحيوان ج ٣ ص ٣٤ و ج ٥ ص ٩

(٤) الحيوان ج ٤ ص ١١٦ (٥) الحيوان ج ٤ ص ١٣١

(٦) الحيوان ج ٧ ص ١٨ (٧) الحيوان ج ٢ ص ٥٠

(٨) الحيوان ج ٤ ص ١٠١ و ١١١ و ١١٣ و ج ٧ ص ٧٧ و ٧٨

عقار به بالضرب ، فسموا ذلك الحقد ضبا <sup>(١)</sup> .

وقد يسميها كذلك مجازاً ومجازاً بعيداً ، ومن الأول تعليقه على قول  
الله تعالى ( إنما يأكلون في بطونهم ناراً ) بأنه مجاز <sup>(٢)</sup> ، ومن الثانى قوله  
تعليقاً على قولهم : لفظت الشاة العلف إذا لم تأكل منه : « إن ترك الشاة  
للعلف ليس بلفظ له إلا أن يحملوا ذلك ونحوه على المجازات البعيدة <sup>(٣)</sup> » .  
وإذا فالجاحظ قد عرف الاستعارة وتسميتها واعتبارها مجازاً . أما  
استعمال لفظ على التشبيه ونحوه في هذا المقام فليس غريباً ، إذ الاستعارة  
مجاز علاقته المشابهة في قول المتأخرين ، و بعضهم يجعل التشبيه استعارة ،  
وكلمة التشبيه ترد عندهم في اجراء الاستعارة ، كما أن التمثيل يتصل بالتشبيه .  
وللجاحظ بعد ذلك كتاب تحدث عنه فقال :

« ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ليعرف بها ما بين الایجاز  
والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات » . فلعل هذا الكتاب  
لو وصل إلينا لكشف عن حقيقة فهم القوم للاستعارة ، أكثر من كشف  
هذه العبارات التي وردت عرضاً في أثناء حديث الجاحظ عن موضوعات  
شئى .

(١) الحيوان ج ٦ ص ٢٠

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٩ و ١٠

(٣) الحيوان ج ٢ ص ٥٤

## ٤ - المثل

أتى المثل بمعنى المجاز أو مقابل الحقيقة ، وقد سبق نحو هذا في باب الاستعارة ، وذلك كقوله عن نار الحرب إنها نار ، على طريق المثل لا على طريق الحقيقة (١) .

كما كان بمعنى الأصل في معنى من المعاني ، فيشبهه به غيره المشارك له في هذا المعنى ؛ كقوله إن السمكة هي الأصل في السباحة ، وهي المثل وإليها جميع النسبة (٢) . وكأن يتحدث عن المثل والفرع المأخوذ من الأصل في معرض الحديث عن تسمية المطلب وجها (٣) .

وكان ضرب المثل بمعنى التشبيه في تعليقه على قول الله تعالى ( فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ... ) ؛ إذا أورد زعم القائلين بأن هذا المثل لا يجوز أن يضرب ، وقد مر في باب التشبيه . وفي قوله وقد أكثروا في ضرب المثل ببعدهما بين الجنسين ، وذكر تشبيهه عبد الرحمن بن الحكيم آل مهجوه من قریش بآل الفيل من ولد الأتان (٤) . وكقوله : وقالوا في المثل ضربه ضربة ، فكأنما أخطأه ؛ لسرعة

(١) الحيوان ج ٥ ص ٧٤ (٢) الحيوان ج ٥ ص ٤١

(٣) هامش الكامل ج ٢ ص ٢٢٠ و ٢٢١

(٤) الحيوان ج ٧ ص ٧٣

المر وانعدام الصوت (١) .

واستعمل المثل كثيرا بمعنى القول السائر، كقوله : من أمثال العامة

أحمق من معلم كتاب (٢) .

وأنى بمعنى ما ورد في كتاب كليلة ودمنة على لسان الحيوان من مواعظ

وحكم في قوله : « وما قرأه الناس من الأمثال في شأن الفيل التي وجدوها

في كتاب كليلة ودمنة » .

## هـ - الكناية

أنت الكناية عند الجاحظ بمعنى عام ، وهو التعبير عن الشيء تلميحاً  
لا تصريحاً .

ففي قول الهندي : « ومن البصر بالحجة والمعرفة بموضع الفرصة أن تدع  
الافصح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الافصح أوعر طريقة . وربما كان  
الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحق بالنظر » . وفي قوله : « رب  
كناية تربي على إفصح (١) » ، ترى أن الكناية تقابل الافصح ، وأنهما  
مع الإهمال أو السكوت أمور يدعو إليها المقام ، وتلزم مراعاتها في باب  
البلاغة ، ويجب تحرى المقام الملائم لكل منها .

ويردد هذه الدعوة ذاتها حين يروي بيت داود بن جرير :  
يرمونَ بأخطَبِ الطَّوَالِ وتارةً وحىَ المَلَّاحِظِ خيفةَ الرُّقْبَاءِ  
فيقول : « فذكر المبسوط في موضعه ، والمحدوف في موضعه ، والموجز  
والكناية (٢) . . . . »

وتراه — كما سبق — بعد أن يورد أمثلة المجاز اللغوي ، من تسمية  
الشيء بملاسه كالمزادة بالراوية ، ورجيع الانسان بالغائط وما إلى ذلك —  
يقول : « فكله كناية » .

ويقول : « ومن ذلك قولهم في البغي المكتسبة بالفجور قحبة ، وإنما القحباب السعال . . . وكانوا إذا أرادوا الكناية عن زنت وتكسبت بالزنا ، قالوا : قحبت أي سعلت ، كناية . . . وكذلك كانت كنياتهم في انكشاف عورة الرجل ، فيقال ككشف علينا متاعه . . . وشواره . . . وكلمات للنبي صلى الله عليه وسلم لم يتقدمه فيهن أحد ، ومن ذلك قوله : « كل الصيد في جوف الفرا » ، وقوله : لا يلسع المؤمن من جحر مرتين . . . ويقال فلان يقرأ بوجه كذا . . . »

وكقوله : « قال شريح : الحدة كناية عن الجهل . قال أبو عبيدة : العارضة كناية عن البداء . وإذا قالوا : فلان مقتصد ، فتلك كناية عن البخل ، وإذا قالوا للعامل مستقص ، فتلك كناية عن الجور <sup>(١)</sup> . »

وقوله : « ويقال لموضع الغائط الخلاء والمذهب والمخرج والكنيف والمرحاض والمرفق ، وكل ذلك كناية واشتقاق ، وهذا أيضاً يدل على شدة هربهم من الدناءة والفسولة والفحش والقدح <sup>(٢)</sup> . »

فتراه قد استعمل لفظ الكناية استعمالاً عاماً ، يشمل ما يسمى بالمجاز اللغوي والمجاز المركب والاستعارة ، كما يشمل الكناية الاصطلاحية ، بل دخل فيه كذلك استعمال الكلمات قصد التصغير والتحقير <sup>(٣)</sup> .

ولكن يلاحظ فيها غالباً وضع لفظ مكان آخر ، هرباً من التصريح بما

(١) البيان ج ١ ص ١٨٠ (٢) الحيوان ج ٥ ص ٩١

(٣) الحيوان ج ١ ص ١٦٣ و ١٦٤



لا يجمل التصريح به من ألفاظ « الدناءة والفسولة والفحش والقدح » ،  
كالبخل والجهل والظلم والفجور وأسماء العورات .  
وسمى الكناية اشتقاقا كذلك كما مر .

ووردت كلمة التورية عنده في قوله : « وإنما سمي الله عز وجل الكافر  
في باطنه ، المورى بالايان والمستتر بخلاف ما يظهر ، بالمنافق على النافقء  
والقاصعاء ، وعلى تدبير اليربوع في التورية بشيء عن شيء » .  
فكان التورية عنده بمعنى الاحتيال أو التغطية أو التعمية بشيء  
لإخفاء غيره ، إذ سمي ما يفعله اليربوع حين يجمع التراب على ياب جحره  
تورية ، ومنه أتت كلمة المنافق بمعناها الاسلامى (١) .

كما وردت كلمة التعريض في قوله : « ويقال للزطى الذى يلعب بالحدث  
من أولاد الناس هو يأكل رؤوس الحملان ، لمكان ألية الحمل ولأنه أجزل  
وأرطب ، ولم يقولوا في الكناية والتعريض هو يأكل لحوم العرضان » ،  
ومن هذا المقال يبدو أن التعريض يقصد به إلى ستر الذم .

## الفصل الثالث

### الايجاز

عنى العرب فى الجاهلية بالايجاز واعتبروه البلاغة الحقة ، وأتى الاسلام فامتدحه الكتاب وتفننوا فيه ، حتى ود بعضهم لو أن الكلام كله توقيعات . وأغلب الظن أن الأمية فى الجاهلية والاعتماد على الذاكرة كان من دواعيه ، كما اقتضاه تدوين الرسائل فى الاسلام ، إذ يتطلب قراطيس كان الحصول عليها شاقا . يروى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا طلب منه كتابة قراطيس ، أمرهم بالايجاز والاكتفاء بما عندهم منها ، فى الايجاز بلاغة وقصد . ويضاف إلى هذا انقطاع طائفة من الأدباء للكتابة ، وما يؤدى إليه الانقطاع والتخصص من التفنن بل الاسراف فيه أحيانا .

أما الجاحظ فقد ورد الايجاز عنده بمعنى حذف الفضول . واحترز مما قد تدل هذه العبارة عليه من أن الايجاز يعنى قلة اللفظ على الاطلاق ، فنص على أنه لا يعنى الاختصار ولا قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار ، فقد أوجز . فالحذف لما لا يكون سببا فى إغلاق المعنى وما يحدث التكرار بذكره ، والخلط فى إيراد ما لا حاجة إليه لوضوحه .

وشرح هذا في صدر الجزء السادس من كتاب الحيوان ، فقال بعد  
أن عدد ما ذكره من أنواع الحيوان والطيور والحشرات : « وقد بقيت  
أبواب توجب الاطالة وتخرج إلى الاطناب ، وليست باطالة ما لم تجاوز  
مقدار الحاجة . . . وإنما الألفاظ على أقدار المعانى ، فكثيرها لكثيرها ،  
وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها ، وسخيفها لسخيفها ، والمعانى المفردة  
البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعانى  
المشتركة والجهات الملتبسة . ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من  
دونهم عن هذه المعانى بكلام وجيز ، يغنى عن التفسير باللسان والاشارة  
باليد والرأس ، لما قدروا عليه . وقد قال الأول « إذالم يكن ما تريد فرد  
ما يكون » . وليس ينبغى أن يسوم اللغات مما ليس فى طاقتها ، ويسوم  
النفس ما ليس فى جبلتها . ولذلك صار تاج صاحب كتاب المنطق إلى  
أن يفسره ممن طلب من قبله علم المنطق ، وإن كان المتعلم رقيق اللسان  
حسن البيان ، إلا أنى لأشك على حال أن النفوس إذا كانت إلى الطرائف  
أحن وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أصب ، أنها  
خليقة لاستئصال الكثير وإن استحققت تلك المعانى الكثيرة ، وإن كان  
ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أود<sup>(١)</sup> .

فالجاحظ قد رادف بين الاطناب والاطالة ، وجعلهما مقابلين للايجاز

ثم فسر الایجاز تفسیراً واسعاً بمعنى أداء حاجة المعنى ، سواء أكان ذلك الأداء في ألفاظ كثيرة أم قليلة . ثم قرر أن هناك معانى مشتركة مبهمه تحتاج الى ایضاح واسهب في التعبير عنها ، كما أن هناك معانى مفردة يكفیهها قليل اللفظ . وهو يعتذر عن البسط والاسهب ، ويقول انهما أمر لا مناص منه ولا سبيل الى ما سوى الرضا عنه ، ثم يتحدث عن اللغة وطبیعتها ، والنفس وجبلتها ، حديثاً يناسب ما عهد فيه من الربط بين الأدب وحال النفس ، مما أشير اليه من قبل .

والاسهب إنما يكون خطلاً وهذراً حين يفضل عن مقدار الاحتمال ويدعو الى الملل ، اذ لكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية (١) .

وليس التكرار عيباً مادام لحكمة ، كتقرير المعنى أو خطاب الغيبي أو الساهي ، كما أن تردد الألفاظ ليس بعي ما لم يجاوز مقدار الحاجة ويخرج الى العبث . وهذا القرآن قد ردد قصة موسى وهود وهرون وشعيب و ابراهيم ولوط وعاد وثمود ، كما ردد ذكر الجنة والنار وغيرهما ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب .

وضبط الحاجة إلى الترداد والتكرار غير ممكن ، لأنه أمر يتصل بأقذار

المستمعين ومن يحضر الحديث من العامة والخاصة .

\*\*\*

وتحدث الجاحظ عن هذا النوع من التعبير الجامع لكثير المعنى في قليل اللفظ في مواضع عدة . وكان يسميه إيجازاً وحذف الفضول وإيجازاً محذوفاً . ومن هذا قال : « وأشياء تضاف إلى الإيجاز وحذف الفضول . قال بعضهم ووصف كلاباً في حال شدها وعدوها وفي سرعة رفع قوائمها ووضعها ، فقال : كأنها ترفع ما لم يوضع . ووصف آخر ناقة بالنشاط والقوة ، فقال : ألا إنها صناع . وقال الآخر : الليل أخفى ، والنهار أفضح . ووصف الآخر فرساً فقال : في كفه معطية ممنوع » .

فجميع هذه من أمثلة الإيجاز الجامع لمعان كثيرة في عبارة مقتصدة بليغة . وبعد أن أورد أبياتاً من الشعر قال : « ومن الإيجاز المحذوف قول الراجز ووصف سهمه حين رمى غيراً كيف صرعه وهو يقول : « حتى نجا من جوفه وما نجا »<sup>(١)</sup> .

وبعد إيراد كثير من الأمثلة يقول :

« وقد ذكرنا أبياتاً تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول ، ولي كتاب جمعت فيه آياتاً من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد

والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني  
الكثيرة بالألفاظ القليلة . فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة: ( لا يَصَدُّعُونَ  
عنها ولا يُنْزَفُونَ ) وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل  
الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال : ( لا مقطوعة  
ولا ممنوعة ) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني (١) .

وفي هذا النص ترى الجاحظ قد ألف كتابا عرض فيه للإيجاز  
وفصل معناه في القرآن .

وتحدث عن الإيجاز كذلك في قوله : « ومن الكلام كلام يذهب  
السامع منه إلى معاني أهله وإلى قصد صاحبه ، كقول الله تبارك وتعالى :  
( وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ) . وقال : ( لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا  
يَحْيَىٰ ) . وقال : ( وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ) (٢) .  
وبعد أن أورد أمثلة كثيرة واستطرد طويلا قال : « قال الله تبارك  
وتعالى : ( ولكم في القصص حياة ) . وقال بعض الحكماء : قتل البعض  
أحياء للجميع » .

وقد عني البلاغيون من بعد بالموازنة بين هاتين الكلمتين وذكر  
ما في الأولى من مزايا بلاغية .

وتحدث كذلك عما سمي أخيراً بالإيجاز بالحذف في باب سماه :

(١) الحيوان ج ٣ ص ٢٧ (٢) البيان ج ٢ ص ٢٠١

« باب الكلام المحذوف » ، وأتى بكثير من أمثله في الحديث وكلام الصحابة وغيرهم . ومن هذا ما روى من أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ان الأنصار فضلونا بأنهم آووا ونصروا وفعلوا وفعلوا ، قال النبي ( ص ) أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا : نعم ! قال : فان ذلك ! وعقب الجاحظ على هذا بقوله : « ليس في الحديث غير هذا ، يريد أن ذلك شكر ومكافأة » .

وقوله : ( وكلم رجل من قيس عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله ، في حاجة ، وجعل يمتُّ بقراءة ؛ فقال عمر : وإن ذلك . ثم ذكر حاجته ، فقال : لعل ذلك ! لم يزده على أن قال : فان ذلك ولعل ذلك ! فان ذلك كما قلت ، ولعل حاجتك أن تقضى ) .

وقوله : « وقال الأسود لعبدالله بن الزبير : لاحت ناقة حملتني اليك ! قال ابن الزبير : إن وراكبها (١) » .

ويتبين من هذا أن الجاحظ قد عرف الإيجاز وكثيرا من أنواعه ، وإن لم يعرف جميع أقسامه المتأخرة .

## الفصل الرابع

البديع : معناه ، مسائله

### ١ - معنى البديع

أطلق الرواة اسم البديع لذلك العهد اطلاقاً عاماً على المستحدث من الألوان البلاغية ، من تشبيهه ومجاز وما اليهما من أنواع التفنن في الأداء والمحسنات البديعية . وهم يرمون بهذه التسمية إلى أنه شيء جديد مبتدع . فترى الجاحظ بعد أن يورد قول الشاعر :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لاتبوء بساعد  
يقول : « قوله ( هم ساعد الدهر ) إنما هو مثل ، وهو الذي يسميه  
الرواة البديع . وقد قال الراعي :

هم كاهل الدهر الذي يتقى به ومنكبه ان كان للدهر منكب  
وقد جاء في الحديث : « موسى الله أحد ، وساعد الله أشد » . والبديع  
مقصود على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل  
لسان . والراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي  
يذهب شعره في البديع <sup>(١)</sup> .



فهو هنا يسمى المجاز مثلاً، وينسب تسمية البديع إلى الرواة، ثم يطلق كلمة البديع على ما يصطنعه الشعراء من نحو هذا النوع من أنواع التصوير. كما يقول في موضع آخر، متحدثاً عن كلثوم بن عمرو والعتابي: «وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين؛ كنحو منصور النمرى، ومسلم بن الوليد الأنصاري، وأشباههما. وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة» (١)

فيقرر أن بشاراً زعيم البديعيين، وأن العتابي نقل البديع نقلة جديدة، وكان له فيه طابع خاص ومميزات، وحذا حذوه المتكلفون للبديع من بعده. وأحياناً يقول: من البديع كذا، ثم يورد قطعة شعرية فيها استعارة أو استعارات. وقد يصفه بالحمد والاستحسان، فيقول البديع المحمود والبديع المستحسن (٢).

## ب - مسأله

### ١ - السجع

« قيل يارسول الله ، رأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ،  
أليس مثل ذلك يَطُلُّ ؟ فقال رسول الله (ص) : أسجع كسجع الجاهلية ! »<sup>(١)</sup>  
وفي رواية أخرى سبق إيرادها : أسجع كسجع الكهان .

فكهان الجاهلية كانوا يستعملون السجع للتأثير في النفوس ، والحكم  
بين الناس . و يظهر أنه لم يكن يشاركون فيه عامة الجاهليين ، بدليل ما يقوله  
عبد الصمد بن المفضل بن عيسى الرقاشي في معرض الاحتجاج للسجع :  
« وما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد  
الموزون ، فلم يحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره »  
ولو صح هذا لكان هناك نثران أدبيان جاهليان : نثر الكهان  
و يمتاز بالسجع ، ونثر غيرهم المطلق .

وكيفما كان الأمر فقد أثر هذا الحديث في تاريخ السجع ، فكرهه  
كثيرون ، حتى رأينا معاوية حين يقول له ابن الزبير : « إني أناديك ولا  
أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تقدم ، وتفكر قبل أن

تندم ، فان النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم « — رأيناه حين  
يقول له هذا يضحك ، ويجيب : « تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر ! إن  
في دون ما سجدت به على أخيك ما يكفيك ! » (١) .

وكان يملئ على رجل كتابا ، فقال فيه : « لهُو أهون على من ذرة ،  
أو كلب من كلاب الحرة . ثم قال امح من الحرة واكتب من الكلاب .  
كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع » (٢) .

بل لقد فهم جماعة من حديث رسول الله معنى النهي ، فقالوا بتحريره .  
ولكن غيرهم خالفوهم فأباحوه ، واحتجوا لرأيهم بأن رسول الله قد سمع  
الشعر من القصيد والرجز واستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب  
رسول الله قد قالوا شعراً قليلاً كان ذلك أو كثيراً ، وسمعوا واستنشدوا .  
والسجع والمزدوج دون القصيد والرجز . فكيف يحل ما هو أكثر ، ويحرم  
ما هو أقل ! .

وكان عبد الصمد الرقاشي من أنصار السجع ، الذين يؤثرونه على النثر  
المطلق ، ف قيل له : « لم تؤثر السجع على المنشور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة  
الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي  
عليك ، ولكنني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع  
والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالقييد وبقلة التفلت » . وقال إنمنا

---

(١) البيان ، ج ١ ص ٢٠٠ (٢) هامش الكامل ، ج ٢ ص ٤٢٧

كره الرسول السجع لما قد يقصد إليه صاحبه من إبطال لحق وتصادق في كلامه  
فجماعة يجرمون السجع استناداً إلى ظاهر قول الرسول السابق، وجماعة  
يحلونه ويؤولون الحديث . ولكن هناك جماعة تتوسط فتقول إنه لا بأس  
من السجع ما دام لم يطل ، وما دامت القوافي غير مجتمبة ولا متكلفة<sup>(١)</sup> .

ويرى الجاحظ أن الذي كرهه الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر  
في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كانوا يدعون الكشف عن  
الغيب وأن مع كل واحد منهم رثياً من الجن يلهمه القول - كانوا يتكهنون  
ويحكمون بالأسجاع ، فوقع النهي في ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية  
ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

وليس من شك في أن معارضة المتنبئين للقرآن ، واصطناعهم السجع  
في هذه المعارضة - كان له أثر كبير في كراهية النبي والخلفاء له ، وخشيتهم  
الفتنة به . وقد روت كتب السيرة نماذج من سجع مسيامة وطليحة وسجاح  
وغيرهم ، قصد روايتها في أغلب الظن إلى تسخيف أولئك المتنبئين .

ومهما يكن من شيء ، فقد رأينا الخطباء يتكلمون عند الخلفاء الراشدين  
بخطب مسجوعة ثم لا ينهون عنها ، ورأينا كثيراً من القصاص سجاعين  
كالفضل بن عيسى الرقاشي ، وعبد الصمد الفضل ، وأبو العباس القاسم بن  
يحيى ، ولا ينكر الناس سجعهم ، بل يجلس إليهم عامة الفقهاء ويستمعون  
إليهم ولا يعترضون عليهم<sup>(٢)</sup> .

(٢) البيان ، ج ١ ص ١٩٥

(١) البيان ، ج ١ ص ١٩٤

وجد السجع وعقد له الجاحظ أبواباً أورد فيها نماذج كثيرة منه كما  
عقد لمزدوج الكلام باباً صدره بقول رسول الله (ص) : « اللهم علمه  
الكتاب والحساب ، ووقه العذاب <sup>(١)</sup> »  
وذكر الجاحظ أن العرب ألفوا استعمال السجع في المنافرة والمفاخرة ،  
ولم يعبه إلا بما عاب به غيره : أي بالتكلف الذي يفسد القول ، ويفقده الجمال .

### ٢ - الاقتباس

عرف الاقتباس الصحابة والتابعين ، فكانوا يسمون الخطبة التي لم  
توشح بالقرآن الكريم ببراء . ومن هذا ما روى عن عمران بن حطان ، إذ  
قال : « خطبت عند زياد خطبة ظننت أنني لم أقصر فيها عن غاية ولم أَدع  
لطاقن عدة ، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخاً يقول : هذا الفتي  
أخطب العرب ، لو كان في خطبته شيء من القرآن ! <sup>(٢)</sup> »

### ٣ - أسلوب الحكيم

سمى الجاحظ ما أطلق عليه اسم أسلوب الحكيم لغزاً في الجواب ،  
وعقد له باباً في كتاب البيان والتبيين أورد فيه كثيراً من الأمثلة كقوله :  
« كان الحطيئة يرعى غنماً وفي يده عصا ، فمربه رجل فقال : يا راعي الغنم  
ما عندك ؟ قال : عجراً من سلم — يعني عصا — قال : إني ضيف ، قال :

(١) البيان ، ج ٢ ص ٩٦ (٢) البيان ، ج ٢ ص ١٩

للضيفان أعددتها» . وكقوله : قال الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه ؟ قال : أتقرأ ظاهراً ؟ قال : بل أقرأه وأنا أنظر إليه ! قال : أتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه !<sup>(١)</sup> .

ونحو هذا ما سماه محاسن الجواب ؛ كقول سعيد بن مرة حين سأله معاوية : أنت سعيد ؟! أمير المؤمنين سعيد ، وأنا ابن مرة !<sup>(٢)</sup> .

وكذلك ما أتى في باب كلام الموسوسين ؛ كقول واحد لصاحب قدم عليه من فارس : قد كنت عند أمير المؤمنين فأى شيء ولاك ؟ قال : ولانى قفاه<sup>(٣)</sup> .

وهكذا نرى أن هذا النوع من المداورة فى الجواب أو اللغز فيه أو أسلوب الحكيم ، كان يستعمل لغرض التظرف أو التخلص من إحراج السائل أو تقديم الأهم . ويظهر هذا الغرض الأخير فى قوله : « سأل رجل بلالا ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، وقد أقبل من الحلبة ، فقال له : من سبق ؟ قال سبق المقرَّبون . قال : إنما سألك عن الخيل ! ؟ قال : وأنا أجيبك عن الخير ! فترك بلالا جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له<sup>(٤)</sup> » .

(١) البيان ، ج ٢ ص ١١١-١١٨ (٢) المحاسن والاضداد ، ص ٢١

(٣) البيان ، ج ٣ ص ٢١٤-٢٢٤ (٤) البيان ، ج ٢ ص ٢٠١

## ٤ - المذهب الكلامي

ذكره ابن المعتز في الباب الخامس من البديع ، وقال : إن الجاحظ سماه المذهب الكلامي وقال : « وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .  
ثم أورده أمثلة من كلام المتقدمين والمتأخرين تدل على أن معناه التلاعب بالألفاظ على طريقة المتكلمين ، مثل قول أبي نواس :  
إن هذا يرى - ولا رأى لـ الأحمق - أني أعده إنسانا  
ذاك في الظن عنده وهو عندي كالذي لم يكن وإن كان كانا  
وقول الطائي :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا  
ثم ذكر أمثلة للمعيب منه تقوم كلها على التكلف في التشبيه والاستعارة ،  
والتصنع في الأداء (١) .

أما المتأخرون فأتى المذهب الكلامي عندهم بمعنى آخر ، وعرفوه بإيراد حجة المطلوب على طريقة أهل الكلام ، وهو أن يكون بعد تسليم المقدمات مقدمة مستلزمة للمطلوب . ومثلاً له بقول الله تعالى : ( لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ) . وقال التهانوي : « وزعم الجاحظ أن المذهب

(١) البديع لابن المعتز ، نشر كراتشكوفسكي ، ص ٥٣ - ٥٦

المذهب الكلامي لم يجيء في القرآن ، فكأنه أراد به ما يكون برهاناً .  
والآية ليست كذلك لأن تعدد الآلهة ليس قطعي الاستلزام للفساد ، بل إنما  
هو من المشهودات الصادقة (١) .

والذي يتأمل في الأمثلة الواردة عند ابن المعتز ، يرى الفرق  
الكبير بينها وبين الآية التي استشهد بها التهانوي على بطلان زعم  
الجاحظ ؛ وأن معنى المذهب الكلامي عند الجاحظ وابن المعتز كان غيره  
عند المتأخرين .

وقد سخر الجاحظ من الذين يتكلفون أداء الكلام تشبهاً بالمتكلمين  
فيحيلون ويأتون بالغريب من التراكيب (٢) .

---

(١) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، ط كلكتة ، ج ١ ص ٥١١

(٢) الحيوان ، ج ٥ ص ١٠



خاتمة

## الجاحظ في تاريخ البلاغة

يعد الجاحظ في رأي مؤسس علم البلاغة العربية . ذلك بأنه قد جمع ما يتصل به من كلام سابقه ومعاصريه ، وشرحه ، وأضاف إليه .  
وقد زالت بعض الموضوعات التي أثارها في هذا الباب كمسائل الخطابة ، وعدل كثير مما عرض له تعديلا كليا أو جزئيا . لكنه فتح بابا لم يسبق في أغلب الظن به ، وظهر أثر كتاباته واضحا في تاريخ هذا العلم ، وظلت المسائل التي تحدث عنها والأمثلة التي أوردتها موضع البحث والشرح .  
وقد رأينا فيما سبق أن معاني الفصاحة والبيان والبلاغة ، على ما صورها الجاحظ باختلاطها واتصالها ، بقيت ولم تنزل ، وأنه قد عرف كثيرا من ألوان البيان .

ومما جاء عنده ، وتعهده من بعده بالنظر والبحث ، الخطابة وصلتها بالبلاغة . فابن قتيبة لم يربأسأ في أن ينهج نهج الجاحظ ، وأن يجعلها قوام البيان عنده . ولم يغفلها قدامة . وعرض لها أبو هلال العسكري في الفصل الأول من كتابه الصناعتين . وذكرها ابن رشيق في كتابه العمدة . وزادت عناية ابن سنان بها ، فافتتح كتابه «سر الفصاحة» بالحديث عن الأصوات وما يتصل بها ، وبالغ في معالجة مسائل النطق وأداته .

ولعل أول من انبرى لمناقشة الجاحظ في هذا ، وتسفيه رأيه ، عبد القاهر الجرجاني ، فقد سخف من يرى البلاغة في الإشارة بالرأس والعين ، وفي

جهازة الصوت والبعد عن اللسكنة والحبسة وما إلى ذلك .  
ولعلها أخذت منذئذ تتضاءل في ميدان البلاغة حتى انفصلت عنها  
أخيراً ، وذيلت في اقتضاب علم المنطق .  
أما إعجاز القرآن فقد ألفت فيه كتب كثيرة ، وراه عبد القاهر وابن  
سنان الغاية من علم البلاغة .

والنظم الذي أشار إليه الجاحظ في كتاب الحيوان ، وألف فيه كتاباً لم  
يعثر عليه ، قد ألفت فيه كتب كثيرة . فمحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي  
ألف كتاب ( إعجاز القرآن في نظمه ) . وابن علي الإخشيد له كتاب نظم  
القرآن . وكذلك لابي علي الحسن بن علي بن نصر<sup>(١)</sup> . وكان موضوعه أهم ما عالج  
عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز ، يبدأ فيه ويعيد ، ويضطرب في تفسيره .  
أما موضوع اللفظ والمعنى فقد كان أهم المسائل التي دار حولها جدل  
طويل . فابن قتيبة ، الذي فتن بمعارضة الجاحظ ، من المحتمل أنه قد قصد إلى  
مخالفة رأيه : أن البلاغة في اللفظ قبل كل شيء ، حين قال في معرض الحديث  
عن الشعر إنه على أربعة أضرب : جيد اللفظ فقط ، وجيد المعنى فقط ،  
وجيد اللفظ والمعنى معاً ، ومتأخر الاثنين جميعاً كأنه يشير إلى أنها ليست  
في اللفظ وحده<sup>(٢)</sup> .

وأبو هلال العسكري يؤيد مذهب الجاحظ ، وإن اضطرب بعض

(١) الفهرست ، ص ٥٧ — ٥٨

(٢) الشعر والشعراء ، ط ليدن ، ص ٧

الشيء في حديثه عن الفصاحة ، والفرق بينها وبين البلاغة بالقياس إلى اللفظ والمعنى (١).

وأتى عبد القاهر ، فقال مرة : إن البلاغة ترجع إلى اللفظ ، وأورد قول الجاحظ . ومرة قال ما يكاد يكون نفيًا لهذا القول . وحاول القزويني التوفيق بين قوليه ؛ كما قال ابن رشيقي ، وابن سنلان ، والسكاكي أقوالاً في هذا الباب ليس هنا مجال الحديث فيها (٢)

وليس الأمر مقصوراً على ما أثارته هذه المسائل من الجدل ، ولكن كتابة الجاحظ كانت مادة لكثير من المؤلفين في البلاغة بعده . فباب العلم والبيان عند ابن قتيبة ليس إلا تلخيصاً منظماً لما فرقه الجاحظ في كتبه (٣).

فكان فهمه للبلاغة واصطلاحاتها ، لا يخالف ما أتى عند الجاحظ (٤).

---

(١) الصناعتين ، ص ٤٢

(٢) شرح الايضاح ، ط الحمودية ج ١ ص ٢٩ ؛ وسر الفصاحة ، ط الرحمانية ، ص ٥٥ ؛ ومفتاح العلوم ، ط الأدبية ، ص ٢٢٠ ؛ والعمدة ، ط مصر ، ج ١ ص ٨٠ .

(٣) عيون الاخبار ، ط دار الكتب ، م ٢ ص ١١٧ - ٢٥٨ .

(٤) المعارف ، ط مصر ، ص ٣ و ٤ و ١٤٨ و ٢٠٠ و ٢١٧ و ٢٣٥ ،

وقدامة قد نقل كثيراً من الجاحظ ، كما تأثر به الرماني ، على ما امتاز  
به من الإيجاز ، وثمر الأقسام .

وليس أبو هلال إلا شارحاً للجاحظ في كتابه الصناعتين ، جامعاً  
للمتفرق عنده . وقد تحدث عن كتاب البيان والتبيين ، بعد أن أورد  
طرفاً من تخليط بعض المتحدثين في البلاغة ، فقال : ( ووقفت على موقع  
هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبيل . ووجدت الحاجة إليه  
ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة . وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان  
والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وهو لعمرى كثير الفوائد ،  
جم المنافع . . . . إلا أن الابانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان  
والفصاحة ، مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتثرة في أثنائه ، فهي ضالة بين  
الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير . فرأيت أن أعمل  
كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام : نثره ونظمه ،  
ويستعمل في محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال وإسهاب  
وإهدار )<sup>(١)</sup> .

وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابي للجاحظ ، نجده كذلك عند  
ابن رشيق ، وابن سنان ، وغيرها .

---

والشعر والشعراء ، ط مصر ، ص ١٢٧ و ١٢٠ و ٢٦٧ و ٢٧٢ و ٣٤٥ و ٤٥٣ و ١٠٣ و ١٠٦

(١) الصناعتين ، ص ٦

أما التأثير السلبي : فقد رأيناه عند عبد القاهر الذي حمل على طريقة الجاحظ ، ولكنه لم ينسج من سلطانه ، فنقل عنه كثيراً ، واضطرب في حديثه عن اللفظ والمعنى بين مخالفة الجاحظ وموافقته .

\*\*\*

وبعد : فأى طريق سلك الجاحظ في الحديث عن البيان والبلاغة ، ومسائلهما ؟ هل سلك طريق المتكلمين ، أو طريق اللغويين ، والنحاة ، أو طريق نقاد الكلام ، أو طريق صناعه ؟

لقد تحدث ابن سنان عن هذه الطرق الثلاث ، فقال : ( وذلك أن المتكلمين وإن صنفوا في الأصوات وأحكامها ، وحقيقة الكلام ما هو ، فلم يبينوا مخارج الحروف ، وانقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها . وأصحاب النحو وإن أحكموا بيان ذلك ، فلم يندكروا ما أوضحه المتكلمون الذي هو الأصل والأس . وأما أهل نقد الكلام ، فلم يتعرضوا لشيء من جميع ذلك ، وكان كلامهم كالفرع عليه ) (١) .

ولا ريب : أن هذه الاتجاهات الثلاثة ، مع طريقة الأدباء أو صناع الكلام ، قد وجدت في البلاغة .

فوجه المتكلمون عنايتهم إلى بيان حقيقة الكلام ، وذكر التعريفات وكيف تكون جامعة شاملة ، والاسراف في التقسيمات ، وإدخال المنطق في البلاغة . ولعل المقدم في هذا الاتجاه ، هو قدامة في نقديه ، فقد جعل

المنطق من مقومات البيان .

أما اللغويون : فأتجهوا إلى تخريج الفنون البلاغية تخريجاً لغوياً  
واتبعوا طريقة التنظيم في التأليف ، متأثرين بما حدث في علم النحو .  
ولعل مامراً عند أبي عبيدة والمبرد يمثل اتجاههم . وكان النقاد يعنون  
بالمفاضلة بين ألوان البيان عند الشعراء ، وذکر المبتكر والمنقول منها ،  
والتنبيه إلى محاسنها ومساوئها ، أو تطبيق معايير المتكلمين واللغويين  
على الآثار الأدبية وهذا الاتجاه يظهر في كتب النقد الأولى ، وقد وجدنا  
بذوره في العصر الجاهلي .

والقريب : أن يكون الجاحظ المتكلم قد سلك طريق المتكلمين .  
والحق : أن أثر الكلام والجدل قد ظهر عنده في حديثه عن  
الدلالات وأنواعها ، وفيما فرقه في كتاب الحيوان ، من نحو حديثه في اللفظ  
والمعنى ، والجدل في ماهية الأكل في التعبير المجازي : يا كلون في بطونهم  
ناراً ، وأكلت النار زيت المصباح ، وما إلى ذلك . لكنه في جملته  
رجل أديب ، اتبع طريقة أدبية ، تعنى بإيراد النماذج ، والاكتثار من  
الأمثلة ، والآثار الأدبية شعرها ونثرها .

وقد عرف له هذا المتأخرون ، فقال أبو هلال بعد أن قرأ أنه شارح للجاحظ ،  
منظم للمتفرق عنده ، وبعد أن تحدث في الفصل الأول موجزاً عن ماهية الفصاحة

والبلاغة ، وهل ترجعان إلى معنى واحد ، أو تختلفان ، وفي وصف الله  
بالبلاغة: أجاز هو أم غير جاز ، وفي وصف الانسان بها أحقيقة أم مجاز-  
يقول ، بعد الاشارة إلى هذه البحوث التي يعنى المتكلمون بها:

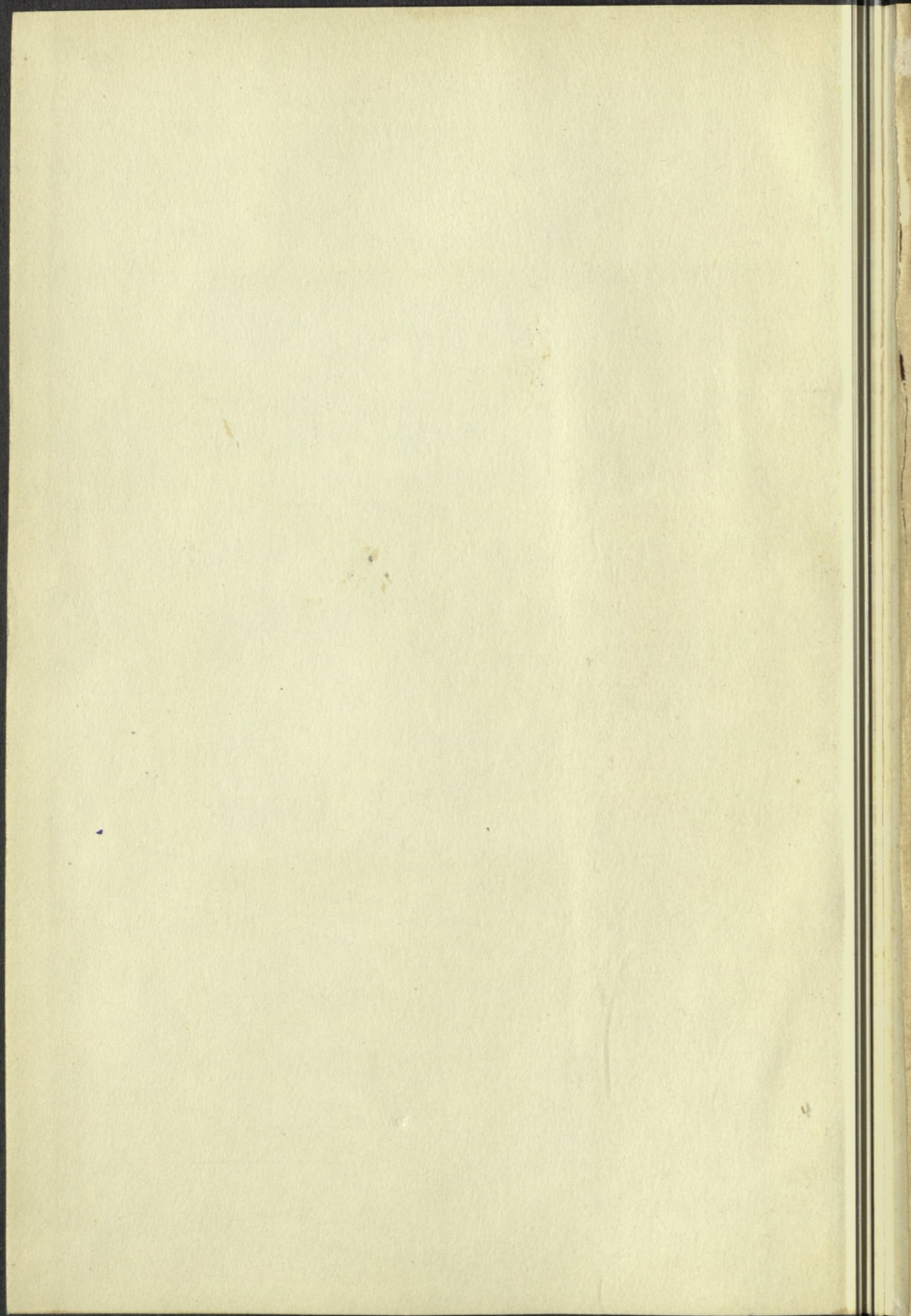
«وليس الغرض في هذا الكتاب ، سلوك مذهب المتكلمين . وإنما  
قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب . فلهذا لم  
أطل فيه»<sup>(١)</sup>.

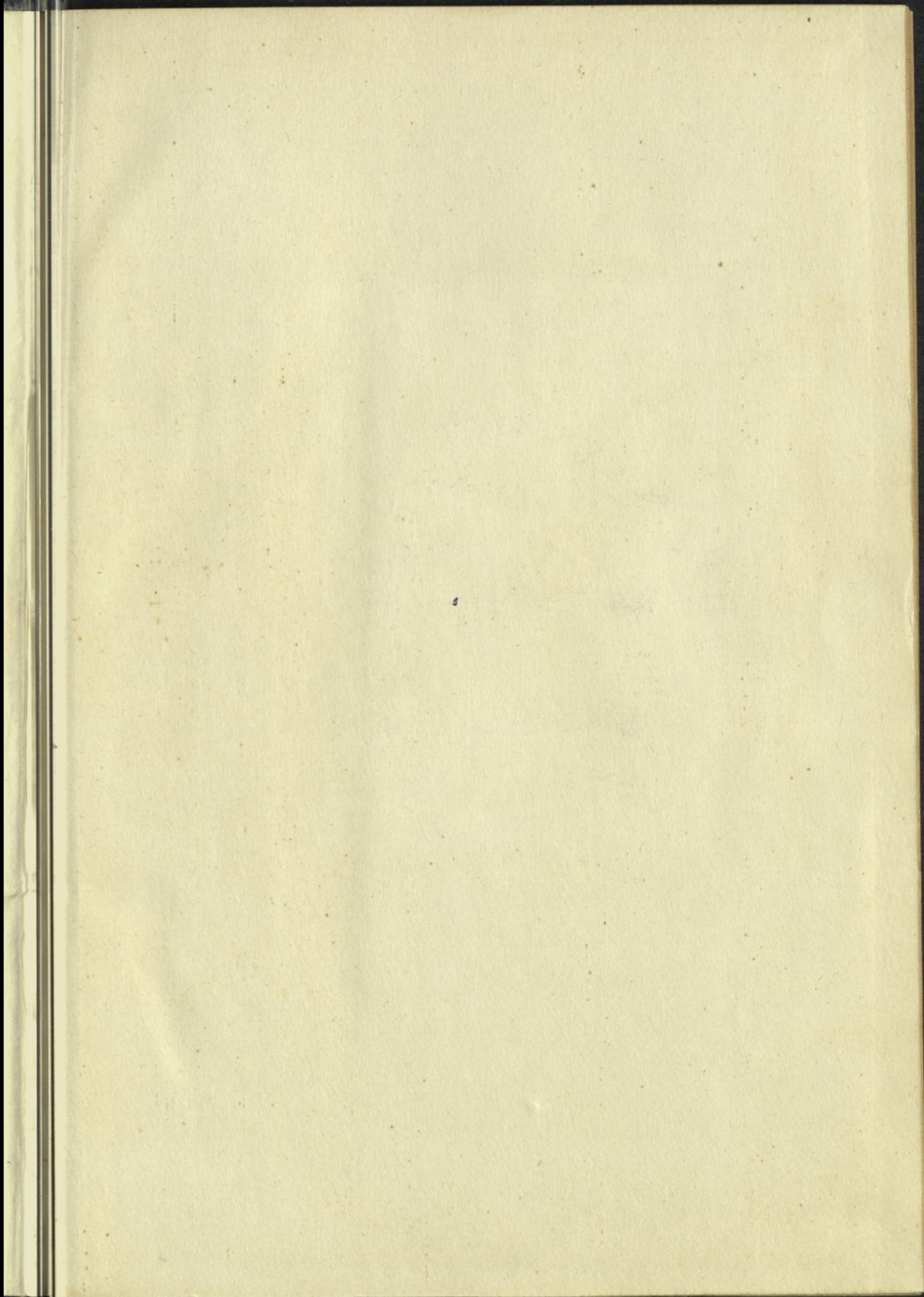
وهذا صريح الدلالة في أنه قد اتبع الجاحظ في سلوك طريقة صناع  
الكلام من الشعراء والكتاب ، وأن الجاحظ لم يسلك طريق المتكلمين

\*\*\*

وكيفما كان الأمر ، فالجاحظ قد أورد الكثير من المسائل البلاغية  
إيراداً أدبياً . ولو وهب عقلاً منظماً ، يرتب المسائل ويصل بينها ، لشكل  
الكثير من موضوعات البلاغة والنبيان والمعاني تشكيلاً نهائياً ، ولكان له  
شأن أعظم في تاريخ البلاغة العربية .







808:N32ba:c2

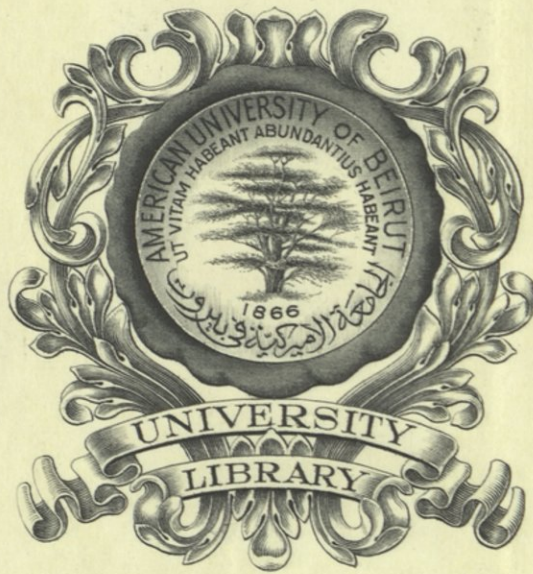
نوفل، سيد

البلاغة العربية في دور نشأتها ...  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031091

AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT



808

N326A

C-2